

لغة أم لسان

دراسة تحليلية





د. رشيد الجراح

Certificate of Registration
CopyrightFrance

Copyright Registration Number: 9H2F1R2

CopyrightFrance.com, Website registered under number 2104 by the State Prosecutor of the High Court of Evreux (FRANCE) certifies having delivered the certificate of the original following registration

Name of the registrant: Rasheed Saleem Al-Jarrah

Title or URL of the registered document: https://www.dr-rasheed.com/

Description: Dr. Rasheed's blog documents his lifelong reflections on the Quran, offering linguistic and analytical insights without adhe ring to any specific sect. The goal is to officially archive and le gally protect his writing, ideas and stories presented in the blog.

Date / time of the registration: 15-02-2025 à 20:46

The submitted document has been time stamped by a RGS qualified Certification Authority and ETSI TS 102 023 certified.

Paris (date) 15-02-2025 - The publication manager G.E.E. :

Reminder : (code of the intellectual property, extracts) :

✔ **Point L.335-2.** All publishing of written documents, musical composition, drawing painting or any other totally or partly printed, engraved production regardless of the laws and regulations concerning author's property is a forgery and any forgery is an offence. In France, forgery of published work in France or abroad is punished by 3 years in prison and a 300.000 euros fine. Will be punished the same way selling export and import of counterfeit work.

✔ **Point L.335-3.** Is also considered a forgery offence all reproduction , representation or circulation by any mean, of piece of spiritual work by violating the author's rights, as they are set and regulated by law. Is also considered as a forgery offence the violation one of the owner of the software's rights.



3c14c5091f191db578780f4e846d7a176d3cb058592f3b129f067ba1aa063728

كلمة فريق عمل مدوّنة روح

الحمد لله الذي علّم الإنسان بالقلم، وخصّه بنعمة البيان، وجعل تدبّر كتابه العزيز سبيلًا للهداية.
أمّا بعد،

يمرّ الفكر الديني المعاصر بمنعطفٍ تاريخي يفرض إعادة تأسيس العلاقة مع النصّ المؤسِّس؛ فكثير من المفاهيم والمناهج قد ترسّخت عبر القرون حتى غدت في الوعي العام بمنزلة المسلّمات المطلقة. في خضمّ هذه الحاجة الملحة للمراجعة والتجديد، يأتي مشروع الأستاذ الدكتور رشيد سليم الجرّاح ليقدّم قراءةً مغايرة للقرآن الكريم، قراءةً لا تكتفي بحدود التفسير الموروث بل تتجاوزه نحو فهمٍ جديد يتأسّس على منهجٍ علميٍّ دقيق، يلامس روح النصّ بعمق ويقترب من منطق العقل والفطرة السليمة.

لعلّ في الاسم الذي يحمله الدكتور رشيد سليم الجرّاح إشارةً بالغة الدلالة؛ فهو بحقٍّ يُجري عمليةً جراحية للكلمة القرآنية. إنه يتعامل مع مفردات الوحي برُشدٍ متناهٍ، كأنّه يضعها تحت مجهر الفكر واللغة، فيُريك نسيجها العضوي، ويكشف عن أعصابها الصرفية وعروقها الدلالية، لتتجلّى بذلك أبعادها النفسية والمادية العميقة. هكذا تتحوّل الكلمة في مشروعه من مجرّد رمزٍ صوتي إلى كيانٍ حيٍّ نابضٍ بالمعنى، يحمل إمكانات التأويل التي تنتظر التحرير.

لقد كانت أبحاث الدكتور الجرّاح ومقالاته بمثابة أطروحات نوعية تميّزت بالعمق والجرأة الفكرية، فمثّلت دعوةً صريحةً لإعادة بناء علاقتنا التلقّائية بالوحي، لا على قاعدة التلقّي الجامد، بل على أساس الفهم المتدبّر والتحليل العلمي المحكم. وهي دعوةٌ ضرورية تُعيد إلى النصّ حيويته الجوهرية، وإلى الفكر الديني توازنه المنشود، وتُحيي مسؤولية الباحث في إعمال العقل وكسر حاجز السؤال الموقوف.

وانطلاقًا من قناعتنا الراسخة بأهمية هذا المشروع الريادي، وبضرورة حفظه وتوثيقه ليكون مرجعًا للباحثين والمهتمين، تضافرت جهود فريق المدوّنة. لقد قمنا بجمع هذه المقالات والدراسات المنشورة، ومن ثم تنظيمها وتصنيفها وتحريرها بعناية فائقة، لتصدر الآن في هذا العمل المتكامل الذي نضعه بكل تقدير بين يدي القارئ الكريم.

نحن نؤمن يقينًا بأنّ هذه الكتابات تمثّل إسهامًا محوريًا في مسار الفكر القرآني المعاصر، وأنها تفتح آفاقًا رحبة للتأمّل والمراجعة والتجديد، بما يليق بكتابٍ أنزله الله للعقل قبل التقليد، وللحياة قبل التاريخ.

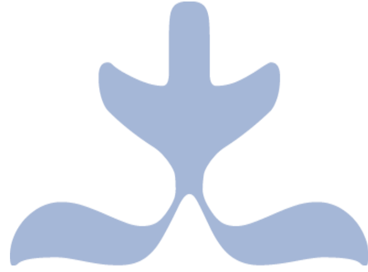
إنّ هذا العمل ليس سوى نقطة انطلاق في مسارٍ نأمل أن يكون مستدامًا؛ وفاءً لصاحب هذا المشروع العلمي الرائد، وإيمانًا بما قدّمه من اجتهادٍ صادق ورؤيةٍ علمية مغايرة تستحقّ كل التقدير والاحتفاء.

فريق عمل مدوّنة الدكتور رشيد الجراح:

- المهندس **عامر محمد العوض، مهندس نظم المعلومات من مايكروسوفت.**
- المهندس **زكرياء مصباح، مهندس مدني.**
- الأستاذ **مصطفى عيسى، مصمم ديكور ومستشار في العقارات.**
- الأستاذ **محمد عادل الخولي، مستشار في العقارات.**
- الدكتور **يوسف فرمي، مهندس البحث والتطوير في الإلكترونيات الدقيقة والبصريات.**

للإتصال بالفريق : roohblog2025@gmail.com

الفهرس:



علم الكلمات

علم اللغة



علم اللغة

تمهيد

لقد ورد في القرآن الكريم في أكثر من موضع الحديث عن "اللغة/اللسان"، فورد فيه عن كيفية نشأة اللغة وتغيرها ووظيفتها والأهم من ذلك كله "كنهها" أي جوهرها، وهو ما نقحم أنفسنا الخوض فيه في هذا البحث، فجاء ذكر اللغة في القرآن الكريم بمصطلح لسان "وهو ما يستخدمه الفكر الغربي " Mother tongue":

- ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ٧٨﴾ [آل عمران: 78]
- ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ٤٦﴾ [النساء: 46]
- ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ٤﴾ [إبراهيم: 4]
- ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ۚ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ٦٢﴾ [النحل: 62]
- ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ١٠٣﴾ [النحل: 103]
- ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ١١٦﴾ [النحل: 116]
- ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ٥٠﴾ [مريم: 50]
- ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ٩٧﴾ [مريم: 97]
- ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ٢٧﴾ [طه: 27]
- ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ١٥﴾ [النور: 15]
- ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٢٤﴾ [النور: 24]
- ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ١٣﴾ [الشعراء: 13]
- ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ٨٤﴾ [الشعراء: 84]

- ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٖ ١٩٥﴾ [الشعراء: 195]
- ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ٣٤﴾ [القصص: 34]
- ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ ٢٢﴾ [الروم: 22]
- ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٥٨﴾ [الدخان: 58]
- ﴿وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةٗۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٞ مُّصَدِّقٞ لِّسَانًا عَرَبِيّٗا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ ١٢﴾ [الأحقاف: 12]
- ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ شَغَلَتۡنَآ أَمۡوَٰلُنَا وَأَهۡلُونَا فَٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَاۚ يَقُولُونَ بِأَلۡسِنَتِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ ضَرًّا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ نَفۡعَۢاۚ بَلۡ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرَۢا ١١﴾ [الفتح: 11]
- ﴿إِن يَثۡقَفُوكُمۡ يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ ٢﴾ [الممتحنة: 2]
- ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ١٦ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ١٧ فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ ١٩﴾ [القيامة: 16-19]
- ﴿أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ٨ وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ ٩ وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ١٠﴾ [البلد: 8-10]

وجاءت كذلك بذكر الأسماء "Naming Theory":

- ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣١﴾ [البقرة: 31]
- ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ٣٣﴾ [البقرة: 33]
- ﴿قَالَ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ وَغَضَبٌۖ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ٧١﴾ [الأعراف: 71]
- ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٤٠﴾ [يوسف: 40]
- ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ ٢٣﴾ [النجم: 23]

وجاءت بمعنى النطق (والمنطق):

- ﴿قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ٦٣﴾ [الأنبياء: 63]
- ﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ٦٥﴾ [الأنبياء: 65]
- ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ وَلَدَيۡنَا كِتَٰبٞ يَنطِقُ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٦٢﴾ [المؤمنون: 62]

- ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾ [النمل: 16]
- ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [النمل: 85]
- ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [الصافات: 92]
- ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [فصلت:21]
- ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الجاثية: 29]
- ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الذاريات: 23]
- ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾﴾ [النجم: 3]
- ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [المرسلات: 35]

نجلب انتباه القارئ إلى القول أن هذه (اللسان والنطق والأسماء) وإن أشارت جميعها على مفهوم اللغة لا تعني الشيء نفسه، فلكل منها مدلولاته التي لا تتطابق تماما مع الأخرى، وهذا ما سنتعرض له لاحقاً، ولكن حتى يتبين القارئ وجاهة ما نقول، ندعوه إلى تدبر الآيات الكريمة التي تتحدث عن النطق مثلاً ليجد أن جميعها تتحدث عن ما يسميه البعض "بالجمادات" "والحيوانات" كأصنام قوم إبراهيم، والكتاب، والطير والجلود وهكذا، ولكنها تتحدث عن البشر في حالات قليلة جدا، وهي:

- ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الذاريات: 23]
- ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾﴾ [النجم: 3]
- ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [المرسلات: 35]

وتساؤلنا البسيط هو: لماذا؟ ما الذي يجمع بين هذه الآيات التي تتحدث عن البشر وتلك التي تتحدث عن غير البشر حتى يستخدم لفظ "النطق" على وجه التحديد؟

جواب مفترى: نحن نرى أنّ المتفحص لهذه الآيات يدرك أنّ الذي "ينطق" (مهما كانت كينونته) سوف يقول الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة. فالكتاب ينطق بالحق، ونبينا لا ينطق عن الهوى، ولو تحدثت أصنام قوم إبراهيم، لنطقت بالحق كما ستنطق جلودهم يوم أنْ يأذن الله لها:

- ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [فصلت:21]

وهم (أي الذين حق عليهم القول) لا يســتطيعون النطق لأنهم لا يســتطيعون قول الحق، فمن لا يقول الحق لا يستطيع النطق:

- ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [النمل: 85]
- ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [الصافات: 92]

(وســنتعرض لهذه المعاني لاحقاً للتفريق بين الألفاظ والاســتفادة منها متى أذن الله لنا بشيء من علمه فيها)

واختص الله سبحانه اللسان العربي بالذكر في أكثر من موضع:

- ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٢﴾ [يوسف: 2]
- ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ حُكۡمًا عَرَبِيّٗاۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا وَاقٖ ٣٧﴾ [الرعد:37]
- ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ ١٠٣﴾ [النحل: 103]
- ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا وَصَرَّفۡنَا فِيهِ مِنَ ٱلۡوَعِيدِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ أَوۡ يُحۡدِثُ لَهُمۡ ذِكۡرٗا ١١٣﴾ [طه: 113]
- ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ١٩٥﴾ [الشعراء: 193-195]
- .﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ٢٨﴾ [الزمر: 28]
- ﴿ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣﴾ [فصلت: 3]
- ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ٤٤﴾ [فصلت: 44]
- ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ٧﴾ [الشورى: 7]
- ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٣ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ٤﴾ [الزخرف: 2-4]
- ﴿وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةٗۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٞ مُّصَدِّقٞ لِّسَانًا عَرَبِيّٗا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ ١٢﴾ [الأحقاف: 12]

وبحثنا هذا يستند على جميع الآيات القرآنية التي جاء فيها إشارة لصيغ الخطاب المتعددة (اللغة، النطق، اللسان، الخ).

نشأة اللغة البشرية

تجمع معظم النظريات المادية ذات الأصول الغربية بأنّ اللغة ليست أكثر من حاجة اجتماعية (social need)، وهي بالتالي نتيجة حتمية لتكون المجتمعات الإنسانية، وهم يدعون بذلك أنّ اللغة قد نشأت بعد تكوّن المجتمعات الإنسانية، وهنا ربما نصل إلى أول فرق جوهري بين الفكر الغربي والتصور الحالي المرتكز على القرآن الكريم لنشأة الكلام، فالقرآن الكريم يثبت أنّ ما حصل هو العكس تماماً، فقد وجد الكلام قبل أنْ يتكون المجتمع الإنساني ودليلنا على ذلك ما ورد في كتاب الله:

- ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾ [البقرة: 30-32]

فنحن نؤمن أن القرآن الكريم يثبت لنا حقيقة جلية تتمثل في أنّ تعليم الأسماء في البدء جاء مباشرة من الخالق، لا بل لقد كان تعليم "الأسماء" هي المعرفة الأولى التي تلقاها الإنسان (ممثلاً بآدم) مباشرة من ربه. وتبين الآيات الكريمة أنّ ذلك العلم كان منحة من الله سبحانه للمخلوق الجديد، ولم تكن حتى الملائكة على دراية بمثله، وسنبين لاحقاً تبعات هذا الأمر.

أما بالنسبة لتكون المجتمع البشري، فلنتابع القراءة في كتاب الله:

- ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾ [البقرة: 35-36]

تُصوِّر هذه الآيات الكريمة تكوّن المجتمعات الأولى: مجتمع الجنة ومن ثم مجتمع آدم الأول خارج الجنة الذي كانت نواته الأولى تتألف من آدم وزوجه. والجدير بالملاحظة هنا - كما يتضح من تسلسل الأحداث في الآيات السابقة جميعها- هو أن الكلام قد حصل أولاً ثم تبعه تكون المجتمع البشري ممثلاً بآدم وزوجه سواء في جنة المأوى الأولى أو على الأرض بعد الهبوط من تلك الجنة. وسنتعرض لتبعات هذا الافتراض بعد قليل.

أين وجد الكلام

يثبت القرآن الكريم أنّ الكلام قد حصل ابتداء في فضاء مجرد عن عنصر المكان الذي نعرف نحن بنو البشر أو حتى أنْ نتخيله، فلا يأتي ذكر الجنة أو الأرض في قصة الخلق الأول في كتاب الله إلا بعد حصول التعلم والتعليم، وبكلمات أخرى فإن المدقق في الآيات السابقة يدرك أن الأمر بدخول الجنة لم يحصل إلا بعد ثلاثة أحداث رئيسة:

⇐ تعليم أدم الأسماء

- ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾ [البقرة: 31]

⇐ إخبار آدم الملائكة بتلك الأسماء

- ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [البقرة: 33]

⇐ سجود الملائكة لآدم

- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة: 34]

فهذا – برأينا- يشير إلى أنّ تعليم الأسماء جاء غير متأثرٍ بأي عوامل بيئية محيطة، وربما يتضح هذا في الآية الكريمة التالية حيث جاء الأمر بالسكن في الجنة بعد التعليم:

- ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣٥﴾ [البقرة35]

نتيجة: نحن نظن أن القرآن الكريم لا يذكر أي فعل قام به آدم قبل تعلّمه الأسماء، وكان هذا – حسب اعتقادنا- سبباً في نقائها، فكانت "علماً خالصاً"، محكوماً بقوانين ثابتة وقواعد متينة، ولهذا جاءت الدقة القرآنية بكلمة "علّم"، فعندما منح الله آدم هذا الشيء – الأسماء- "تلقاه آدم من ربه كعلم"، أي لم يستنبطه آدم من تلقاء نفسه بناءً على تجربته الشخصية، وهذا ما يحفزنا لافتراض أنّ العلاقة بين الاسم والمسمى كانت موجودة أصلاً. وهو ما سيشكل جل النقاش في هذا البحث.

ما قبل إيجاد اللغة

والسؤال الذي يتبادر إلى ذهن القارئ هنا هو: مادامت الأسماء قد جاءت بتعليم أدم، أي أنّ الله سبحانه قد علمها أولاً لآدم، فكيف كان الملائكة إذاً يعبدون الله قبل مجيء آدم وتميزه بتلك الخاصية عن بقية الملائكة والمخلوقات؟ أو بكلمات أخرى، كيف كانت وسيلة المخاطبة بين الخالق من جهة والملائكة قبل آدم من جهة أخرى؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن طريقة الخطاب بين الله والملائكة قبل تعليم آدم الأسماء كانت بالكتمان.

الدليل

إن الجابة على هذا التساؤل موجود – برأينا- في الآية القرآنية نفسها التي تتحدث عن تعليم الله لآدم الأسماء كلها، فجاء في قوله تعالى:

- ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ٣٣﴾ [البقرة: 33]

فالقراءة المتأنية لهذه الآية الكريمة تظهر الدقة القرآنية في هذا التصوير، فهي تشير إلى أنّ علم الأسماء هو طريقة جديدة في العبادة، لا تتأتى إلا بالإظهار، أما طريقة الملائكة قبل تعليم آدم فقد كانت بالكتمان، وربما لهذا جاء في نهاية الآية الكريمة قول الحق على النحو التالي:

- ﴿... وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ٣٣﴾ [البقرة: 33]

فلقد درج معظم الناس على فهم هذه الآية على قدرة الله تعالى على معرفة ما يظهر الإنسان وما يخفي، ولكن لو كانت الآية الكريمة تشير إلى هذا القصد فقط، لربما جاء قول الله تعالى على نحو:

"ما تبدون وما تكتمون"

ولكننا ندعو القارئ إلى تدبر الدقة القرآنية في قوله "**وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ**"، فلماذا جاءت مفردة "**كُنتُمْ** " مع الفعل "**تَكْتُمُونَ**"؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الوصول للمعنى الحقيقي لما جاء هنا يلزمنا عقد مقارنة بين ما هو موجود الآن (الحالة الجديدة المتمثلة بقوله تعالى **مَا تُبْدُونَ**) وما كان موجود سابقاً (الحالة القديمة المتمثلة بقوله تعالى وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ)، وذلك واضح باستخدام لفظ "**كُنتُمْ**"، ولو كانت المقارنة بين حالتين موجودتين الآن معاً لربما ما استدعت الحاجة أن ترد لفظة "**كُنتُمْ**"، وذلك لأن مثل هذه المقارنة قد تكررت في آيات كريمة كثيرة التالية:

- ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٧١﴾ [آل عمران: 71]
- ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ٩٩﴾ [المائدة: 99]
- ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ٢٩﴾ [النور: 29]

فعندما جاء الحديث في معرض قدرة الله على معرفة ما يبدي الإنسان وما يكتم، وردت الصيغة على النحو "**مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ**"، ولكن في حالة خطاب الله للملائكة بخصوص آدم جاءت الصيغة على نحو "**مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ**". وذلك لأن المقارنة هذه المرة – كما أسلفنا- تجري بين حالة موجودة الآن (**مَا تُبْدُونَ**) وأخرى سابقة (**مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ**)، ولذا وردت –في ظننا- لفظة "ما كنتم"، وهو بالضبط ما نجده في الموطن التالي من كتاب الله عند الحديث عن ما كان في نفس القوم الذين طلب منهم أن يذبحوا بقرة لإخراج ما كانوا يكتمون:

- ﴿وَإِذۡ قَتَلۡتُمۡ نَفۡسٗا فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ فِيهَاۖ وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ٧٢﴾ [البقرة: 72]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: لقد أصبح لدى الملائكة طريقتان في العبادة:

(1) الطريقة الجديدة وهي طريقة آدم باستخدام ما علمه الله "الأسماء كلها" (ممثلةً بـ "مَا تُبْدُونَ") والتي أنبأها آدم بدوره إلى الملائكة، و

(2) الطريقة القديمة التي كانت الملائكة تستخدمها في العبادة (ممثلةً بـ "وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ").

وتتجلى الدقة القرآنية كذلك باستخدام كلمة "**وَأَعْلَمُ**"، فالخالق سبحانه يمتلك العلم بكيفية عبادة الملائكة بالطريقة القديمة: "**وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ**" كعلمه بكيفية عبادة الملائكة بالطريقة الجديدة "مَا تُبْدُونَ"، ومصداق ذلك في قوله تعالى:

- ﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡتُمُونَ ١١٠﴾ [الأنبياء: 110]

فهذه الآية الكريمة توضح لنا بشكل لا لبس فيه أنّ المقابل للجهر من القول (وهو ما يبديه آدم الآن) هو كتمان القول (وهو ما كانت الملائكة تعلمه قبل تعليم آدم). فبعد أنْ علّم الله تعالى آدم اللغة

"**الأَسْمَاءَ كُلَّهَا**"، وبعد أنْ أنبأ آدمُ الملائكةَ بأسمائهم "**فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ**" (أسماء الأشياء كلها)، أدركت الملائكة أنّ هذا أمر عظيم أكبر من مقدرتهم، تجعل هذا المخلوق جديراً بما اختصه الله به، فما كان بوسعهم إلا أن يعترفوا أنّ هذا من علم الله وحده، فقالوا عندها:

- ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٣٢﴾ [البقرة: 32]

ولنتذكر أنّ الملائكة (بمجملهم) مكلفون بعبادة الله، فما دام أنّه أصبح هناك من يعبد الله بطريقة أفضل من طريقتهم، فلِمَ لا يكون إذاً جديراً بالخلافة؟! ومن هنا جاء – برأينا - تسليمهم بالأمر دون مجادلة إضافية.

وسنتعرض لاحقاً لموضوع الخلافة على الأرض التي نظن أن الكثيرين قد أخطأوا فهمها، خاصة عندما يحتجون بالمنطق التالي:

- لماذا استخلفنا الله على الأرض ما دام أنه يعلم في سابق علمه المؤمن والكافر منا؟
- لماذا سيعذب الله بعضنا لذنوب مقدرة عليه في الأزل؟
- لماذا اختار الله الإنس (ممثلاً بآدم وزوجه) لخلافة الأرض؟
- لماذا لم يكن ذلك من نصيب الملائكة (على وجه التحديد) أو الجن (بشكل عام)؟
- ما فائدة الخلافة إن كان سيترتب عليها الشقاء والعذاب لاحقاً؟

أسئلة كثيرة سنحاول تسليط الضوء عليها من جوانب جديدة علها تسعف في فهم ماهية الخلافة التي يتحدث عنها النص القرآني. فالله نسأل أن يعلمنا ما لم نكن نعلم، وأن يهدينا سواء السبيل.

نتيجة مفتراة: إن جلّ القول الذي نريد أن نفتريه هنا هو أنّ الآية الكريمة قيد البحث تعقد مقارنة بين طريقة العبادة ما قبل تعليم آدم الأسماء وطريقة العبادة ما بعد تعليم آدم الأسماء وعرضهم على الملائكة، فكانت أولاً بالكتمان ثم تحولت إلى الإظهار.

ما الذي علمه الله تعالى لآدم

باستعراض أمهات كتب التفسير في هذا المجال، وأقوال السلف الصالح والعلماء الأجلاء، نجد أنّ أهل التأويل اختلفوا في معنى الأسماء التي علمها الله لآدم، فنجد مثلاً أن ظن ابن عباس وعكرمة وقتادة ومجاهد وابن جبير على نحو:

"أنّ الله قد علم آدم أسماء جميع الأشياء كلها جليلها وحقيرها". وجاء عن ابن خويز منداد قوله أن "في هذه الآية دليل على أن اللغة مأخوذة توقيفا، وأن الله تعالى علمها آدم عليه السلام جملة وتفصيلا". و روى شيبان عن قتادة قال: "علم آدم من الأسماء أسماء خلقه ما لم يعلم الملائكة، وسمي كل شيء باسمه وأنحى منفعة كل شيء إلى جنسه". قال النحاس: "وهذا أحسن ما روي في هذا". والمعنى علمه أسماء الأجناس وعرفه منافعها، هذا كذا، وهو يصلح لكذا. وقال الطبري:

"علمه أسماء الملائكة وذريته، واختار هذا ورجحه بقوله ثم عرضهم على الملائكة وقال ابن زيد: "علمه أسماء ذريته، كلهم". وقال الربيع ابن خثيم: "أسماء الملائكة خاصة". وقال القتبي: "أسماء ما خلق في الأرض". وقيل: أسماء الأجناس والأنواع".

وهنا نجد لزاما أن نستميح السادة العلماء (أهل الدراية منهم وأهل الرواية) العذر لمخالفتهم الرأي لنفتري قولا من عند أنفسنا مفاده أن الله قد علَّم (ولم يلقن) آدم "علم الأسماء"، فلقد أودع الله سبحانه بنص الآية الكريمة في آدم علماً: وهذا يعني بالضرورة أن آدم يستطيع باستخدام العلم الذي يملكه الآن أن يطلع على حقيقة مسميات الأشياء: أي كيفية التعرف على الأسماء بمجرد رؤيتها؛ وهذا يعني بمفهومنا المفترى أن الله قد أودع بآدم العلم الذي يمكنه من معرفة الأشياء عند رؤيتها مباشرة، وهو ما يسمى بعلم اللغة الحديث "العلاقة بين الاسم والمعنى" (form-content correspondence) وما نسميه في إطار هذا البحث "بالحكمة" لأسباب سيرد ذكرها لاحقاً. وبكلمات أخرى، لقد تعلم آدم كيفية ربط الشكل (form) بالمضمون (content). وهذه الحكمة هي بالضبط ما يحاول جلّ علم اللغة الغربي إنكاره معتبراً أن العلاقة بين الكلمة ومعناها هي علاقة اعتباطية (arbitrary)، ولكن القرآن الكريم (نحن نرى) يثبت أن هناك علم له قوانينه وقواعده وإلا لانتفت حتى إمكانية تعلمه.

وفي هذا السياق أوضح علماء الغرب أن اللغة تتشكل من مستويين من التمثيل (two levels of representations)،

أولهما يمكن صياغته على شكل قوانين منتظمة ويسمى (allophonic level of representation) وهو ما يجعل اللغة قابلة للاكتساب من الطفل دون توجيه ممن هم حوله.

وثانيهما لا يمكن صياغته على شكل قوانين منتظمة ويسمى (phonemic level of representation) وهو ما يعطي لكل لغة خصوصيتها،

افتراء من عند أنفسنا: لما كان ما تلقاه آدم في الجنة هو علم، مجرد عن عنصر المكان، يكون ما تلقاه أدم إذاً هو (allophonic level of representation)؛ فقد تلقى آدم القوانين التي بها تصاغ الأسماء النقية غير المشوبة، المجردة عن كل التأثيرات المتعلقة بعناصر الزمان والمكان، أو حتى تلك المرتبطة بخوالج النفس البشرية. وهذه النظام هو الذي تكون فيه العلاقة بين الاسم والمسمى علاقة مباشرة (one-to-one)؛ أي مرتبطة بالحكمة. فآدم كان يمتلك الأسماء الحقيقية للأشياء (التي سنحاول التفصيل فيها لاحقا بغذن الله)، وهي بكل تأكيد غير تلك التي نمتلكها نحن بنو البشر الآن، ودليلنا على ذلك بسيط ورد أكثر من مرة في كتاب الله:

- ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأعراف: 71]

فعند عقد مقارنة بسيطة هنا بين الأسماء التي علمها الله لآدم والأسماء التي سميناها نحن وآباؤنا (مقارنة بين الأسماء التي تعلمها آدم بتعليم من ربه وهذه الأسماء التي هي من صنعنا نحن بنو البشر)، نرقب الدقة القرآنية في ذلك لنجد أن الأسماء التي من صنعنا هي أسماء (**مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ**)، وهذا يعني

بالضرورة أنّ الأسماء التي علمها الله سبحانه لآدم قد جعل الله فيها سلطانا، وسؤالنا الآن كالتالي: ما هو السلطان الذي ينزل أو لا ينزل مع الأسماء؟

رأينا المفترى: إنه العلم "علم الأسماء". فهناك إذاً نوعان من الأسماء:

1. الأسماء التي من عند الله وهي مبنية على علم كما هو واضح في آية تعليم آدم الأسماء
2. الأسماء التي من صنعنا نحن البشر والتي لا تكون مبنية على علم وإنما إتباعا" للهوى" والظن، قال تعالى:

- ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾ [النجم: 23]

فنخلص إلى القول أنّ الأسماء التي من الله أسماء حقيقية لأنها مبنية على علم خالص، وأسماؤنا وهمية اعتباطية لأنها مبنية على الظن وإتباع الهوى، فالله سبحانه يعلم الاسم الحقيقي لذاك الشيء الذي نجلس عليه ونظن أنّه كرسي ويظن الانجليز أنه chair ويظن الفرنسيون أنّه...، وهكذا. ويأتي السؤال الحتمي: ما هي تبعات هذا الافتراض؟

نحن نظن أن لهذا التصور تبعات جمة، أهمها يتعلق بطبيعة الحياة لمن يمتلك الأسماء، ولكن كيف؟

جواب مفترى: لقد ذكرنا في مؤلفات سابقة لنا بأن من امتلك "الحكمة" يستطيع تنفيذ ما يريد بالحال ودون الرجوع إلى أحد، وهذا بالضبط ما كان آدم بحاجة إليه ليعيش في الجنة، ويختلف هذا القول اختلافاً جذرياً عن ما قاله السادة العلماء السابقون، فنحن نفترض أن الله قد أودع آدم "الحكمة" (أي القدرة على ربط الاسم بالمسمى) مجردة عن عنصر المكان، فكان التطبيق بعد التعليم، والآية القرآنية غاية في الوضوح في هذا المجال، فيقول الله تعالى:

- ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾ [البقرة: 31]

فالآية القرآنية تثبت (نحن نرى) أن عرض الأشياء قد تم بعد تعليم آدم الأسماء كلها، وهذا دليل آخر أن آدم قد تلقى علماً، ولم يكتسب شيئا منه من البيئة المحيطة، (فلو حصل التعليم بعد العرض، لربما كان الافتراض أن آدم قد تعلمها واحدة تلو الأخرى، ولكن الذي حصل هو أن آدم قد امتلك العلم بالأسماء حتى قبل عرضها، فكيف يمكن أن يتم ذلك إلا إذا كان ما يمتلكه آدم هو علم حقيقي به يتعرف على كينونة الأشياء لمجرد "عرضها"؟

وقد يظن البعض أن هذا العرض كان للملائكة. نقول نعم، إن ذلك كان عرضاً للملائكة، ولكنه في ذات الوقت عرضاً لآدم أيضا، ولكن كانت خيرية آدم تتمثل بمقدرته على التنبأ (دون الملائكة) لامتلاكه ذلك العلم الذي اختصه الله به، فآدم لم تعرض عليه تلك الأشياء في البداية عرضاً بل أُعطي العلم الذي به يستطيع معرفة حقيقتها، وإلا لكان آدم قد لُقِّن تلقيناً. وشتان بين من يملك العلم بالشيء ومن تعرض عليه الأمور عرضاً، والفرق في الحالتين هو أن الملائكة لم يعطوا إلا المحصلة من تلك المعرفة "Product"،

بينما حصل آدم على التجربة "Process" التي تمكنه من الوصول إلى النتيجة "Product" بنفسه، فالملائكة لا يستطيعون بذلك مجاراة آدم، فكان لزاما أن يقروا بأحقيته في الخلافة.

إن خلاصة القول التي هي من عند أنفسنا هي على النحو التالي: أنّ آدم قد حصل على علم بينما تلقى الملائكة عرضاً لذلك العلم. وبمقارنة هذه الآية الكريمة بآية أخرى في القرآن الكريم يتبين الفرق بين من يعلم الشيء، فيتحمل تبعاته، مقابل من يعرض عليه الشيء عرضاً، فلا يكون مسئولا (ولا محاسباً) عن تبعاته، يقول تعالى:

- ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب: 72]

فالسموات والأرض والجبال غير محاسبين على الأمانة لأنّهم لم يعرفوها إلا بطريقة العرض، ولكن الإنسان محاسباً عليها لأنّه قبلها.

افتراء من عند أنفسنا: يمكن تصوير المشهد على النحو التالي: بعد أنْ علّم الله تعالى آدم (علم) الأسماء كلها، جاءت الخطوة التالية بتطبيق هذا العلم على أرض الواقع، وهو ما يسمى باللغة الانجليزية "Demonstration" وتختصر (Demo)، فالملائكة لم يكونوا حينها أكثر من متفرجين على عرضٍ اللاعب الأهم فيه آدم.

ويأتي الدليل على ذلك من معرفتنا المسبقة بأنّ تعليم الأسماء قد حصل قبل السكن في الجنة، أي أنّ ذلك كان مجردا عن عنصر المكان، وهذا يعنى – كما نتخيل- أنّ الأشياء لم تكن موجودة من الناحية الحسّية عند تعليم آدم، فلم توضع تلك "الأشياء" - المسميات أمام آدم واحدة تلو الأخرى ليتعرف عليها بهذه الطريقة، (وإلاّ لكان ذلك تلقيناً أو عرضاً كما أسلفنا)، ولكن جل ما حصل لآدم هو اكتساب العلم، وشتان بين المتلقي للمعرفة و العالم التمرس فيها، وتأتي الدقة القرآنية بالقول "**وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا**" ولم تأتي على نحو "وتلقى آدم الأسماء كلها".

وما دام أنّ الذي حصل هو "علم" فإن آدم كان يملك أدوات ذلك العلم، فعندما نقول: "فلان عالم رياضيات"، فإن ذلك يعنى أنّه يملك أدوات ذلك العلم، وهو بهذا العلم أصبح مؤهلاً للممارسة الحقيقية لعلم الرياضيات، وبهذا المنطق المفترى من عند أنفسنا كان المكان الأفضل لآدم ليتمتع بما حباه الله به من علم الأسماء ذلك هو "الجنة"، فعندها جاء الأمر الإلهي لآدم وزوجه على النحو التالي:

- ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [البقرة: 35]
- ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الأعراف: 19]

فكانت حياتهما رغدا، واستمرت على ذلك النحو حتى خسرا هذا العلم بسبب وسوسة الشيطان لهما وقبولهما بنصيحته (وسنتعرض لهذا بحول الله في مقالات قادمة منفصلة، خاصة بإبليس والشيطان)

إن جل القول هنا هو أنّ عرض الأشياء لآدم والملائكة كان في آن واحد، ولكن في حين أنّ الملائكة لم تكن تعرف أسماء تلك "الأشياء" (المسميات) التي تعرض عليهم، كان آدم يتعرف عليها بمجرد عرضها كالشريط السينمائي، والسبب في ذلك أنّ الله قد أودع في آدم علماً لم يودعه في الملائكة وهو علم الأسماء،

ولهذا جاء البيان – في ظننا- في نهاية الآية القرآنية على لسان الملائكة بالقول "إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ" متطابقة مع العلم الذي حصل عليه آدم، ولكنّا نزيد هنا فنطرح تساؤلاً أكثر إثارة وهو: لماذا ختمت الآية القرآنية بكلمة "حكيم"؟ فقد جاء قوله تعالى على لسان الملائكة على النحو التالي:

- ﴿... إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣٢﴾ [البقرة: 32]

إن الجواب الذي نفتريه هنا يتمثل بأنّ آدم لم يكن يمتلك العلم كمتلقي بل كان لديه ما هو أكثر من ذلك، فهو يعلم "مكنون العلم" أو سر ذلك العلم وهو "الحكمة"، فالحكمة أرفع درجة من العلم، وهو ما نقصده بقولنا "سر العلاقة بين الشيء واسمه"، "فالحكمة" هي ما بعد امتلاك العلم بإدراك كينونته، ولذلك جاءت الآية القرآنية غاية في الدقة لتبين لنا (نحن نؤمن) بأنّ آدم لم يكن متلقي للعلم فقط بل كان متمرساً فيه، لا بل كان لديه القدرة على تطبيقها حتى في ظل ظروف وأحوال جديدة كالجنة مثلاً.

تساؤلات سنتعرض لها لاحقا بإذن الله

- ما هي المسميات التي عرضت أمام الملائكة وأنبأهم بها آدم؟
- لماذا كان ما قا به آدم هو نبأ وليس خبر؟
- أين حصل تعليم آدم الاسماء وأين كان مكان التطبيق الذي قام به آدم للملائكة؟
- الخ

عودة على بدء

ومما لا شك فيه أنّ من يملك الحكمة ويدرك كينونة الأشياء يسهل تعامله معها، وهذا بالتالي ما جعل حياة آدم وزوجه في الجنة حياة رغدا، فقال تعالى:

- ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ... ۝٣٥﴾ [البقرة: 35]

فنحن نظن أن حياة آدم في الجنة كانت سهلة وميسرة بسبب امتلاك آدم لهذا العلم، وأن فقدان ذلك العلم يعنى الشقاء، ولهذا قال تعالى في نصحه لآدم:

- ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ۝١١٧﴾ [طه: 117]

والشقاء – لا شك- هو عكس الرغد، فلما كان آدم ممتلكاً للعلم كانت حياته رغداً، وإنْ خسر هذا العلم أصبحت الحياة شقاء، وهذا بالضبط الفرق بين الحياة في الجنة التي كلها نعيم خالص "رغدا" مقابل حياة الدنيا التي جلها تعب و "شقاء".

- ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٣٥﴾ [البقرة: 35]

- ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾﴾ [طه: 117-121]
- ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأعراف: 27]

ونحن نفتري الظن (ربما مخطئين) بأن سبب هذا الشقاء هو البعد عن الله بخسارة العلم الأول الذي علمه الله لآدم، ففي اللحظة التي كان فيها آدم قريباً من الله كانت حياته كلها رغدا، وفي اللحظة التي ابتعد فيها عن الله، انقلبت حياته لتصبح شقاءً وتعبا، وهذا القرب والبعد من الله واضح في خطاب الله لآدم، ولنرقب الدقة المتناهية في استخدام اسم الإشارة عند الحديث عن الشجرة:

- ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [البقرة35]
- ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الأعراف: 19]

ولكن لنرى كيف أصبحت صيغة الخطاب بعد ارتكابهما المعصية؟

⇐ ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الأعراف: 22]

فابتعاد آدم عن الله تعني بالضرورة قربه من الشيطان، ولنمعن النظر مرة أخرى باستخدام اسم الإشارة ولكن هذه المرة على لسان الشيطان:

⇐ ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأعراف: 20]

*** *** ***

وفي خضم خطابنا حول هذا الموضوع، نجد لزاما التعرض لقضايا لم تحسم حتى اللحظة، سيما ونحن نعتقد أنّ هناك الكثير الذي يمكن إضافته في هذا المقام، وسنتعرض لبعضها بطرح الأسئلة على التوالي:

التساؤل الأول: لماذا طلب الله من آدم عدم الأكل من الشجرة؟
لعل الفكر الإسلامي قد درج على الاعتقاد بأنّ ذلك كان من قبيل الاختبار والتجريب لآدم (انظر كتب التفسير)، وهو ما نرفضة جملة وتفصيلا. ونعتقد أنّه من غير المفهوم أنْ يسكن الإله من قضى له بالخلافة ثم يمنعه عن أكل نوع من الشجر، فذلك غير مسوغ – برأينا- إلا ضمن الشروط التالية:

⇐ أنّ الأكل من تلك الشجرة له عواقبه السيئة على آدم (فليس لله حاجة في أنْ يختبر آدم وهو الأعلم

بآدم من نفسه، فالله قضى لآدم بخلافة الأرض حتى قبل سكنه الجنة، فما الذي سيتغير سواءً أكل آدم من الشجرة أم لم يأكل؟ فهل لو لم يأكل آدم من الشجرة (نحن نسأل مستغربين) سينجح حينها بالاختبار وسيبقى في الجنة للأبد؟ وعندها كيف ستكون قراءتنا لقول الله للملائكة "إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً"؟

رأينا الأولي المفترى: إنّنا نزعم الظن أنّ النهي الإلهي لآدم وزوجه عن أكل الشجرة لم يكن اختباراً لهما ولكن حتى لا يصيبهما مكروه إنْ هما أكلا منها.

⇐ أنّ آدم كان يعلم تبعات الأكل من الشجرة (فقول الله يؤخذ على الجد أو التشكيك)، فما دام أن الله قد حذر آدم من تلك الشجرة، فالأكل منها إذاً يسبب له ولزوجه ما لن يحمد عقباه، فما يكون من آدم (ولا غيره) أنْ يصدق إلا الله، ولا يحق لآدم أنْ يحمل كلام غير الله بمصداقية أكبر من تلك التي يحمل عليها كلام الله.

فالإله لم يكن ليقضي لآدم بشيء إلا ما كان في صالح آدم نفسه (كما أن الله لا يرضى للناس إلاّ الخير كل الخير). لذا، نحن نعتقد جازمين أنّ الله قدر حذر آدم من تلك الشجرة لمصلحة آدم وليس اختباراً له، وهذا الاعتقاد نقرأه في الآية نفسها، فعندما أكل آدم من الشجرة حصل ما كان يجب ألا يحصل:

- ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٢﴾ [الأعراف: 22]

والقراءة الدقيقة لهذه الجزئية تثبت افتراؤنا ألا وهو : أنّ الله منع آدم وزوجه عن الشجرة حتى لا يحصل لهما ما لم يكن ليحمد عقباه (وهو أنْ تبدوا لهما سوءاتهما)، ولعل البعض يقول وما الجديد في ذلك؟

جواب مفترى: نحن نرى أن رأينا المفترى هذا يحل جملة من الخلافات التي قد تعترضنا لاحقا، نذكر منها:

⇐ **أولاً**، يجب أنْ نفهم أنّ منع آدم الأكل من الشجرة لم يكن إلاّ لخير أراده له ربه وليس اختباراً له، (وهو ما تعرضنا له في النقاش السابق)

⇐ **وثانيا**، يجب أنْ نفهم المعنى المقصود من "**بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا**". (وهو ما سنتعرض له في النقاش اللاحق)

القضية الأولى: كيف بدت لآدم وزوجه سوءاتهما؟

لعنا نتفق أنّ كلمة "بدت" تشير - بما لا يدع مجالاً للشك- أن الشيء كان موجودا أصلاً ولكنه لم يكن ظاهرا فقط، وهذا يعني (نحن نرى) أن سوءة آدم وزوجه لم تخلق لحظة أكلهما من الشجرة، وذلك بدليل أن سوءاتهما قد بدت فقط:

- ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٢﴾ [الأعراف: 22]

فعندما يبدو لك شي ما، فهذا يعني أنّه يتكشف لك كونه أصلا موجود من قبل، أليس كذلك؟

القضية الثانية: ما هي السوءة التي بدت لآدم وزوجه عندما أكلا من تلك الشجرة؟

لعل الجدل الأكبر في هذا المقام متعلق بمفردة "سوءاتهما"، ليكون السؤال الآن هو: ما معنى المفردة في السياق القرآني؟

رأينا المفترى: لقد درج الكثيرون من علماء الفكر االديني على تسويق الظن بأنّ السوءة تعنى – بمفرداتنا الدارجة غير الدقيقة- "العورة"، أي أن لسان حالهم يقول بأنّ "عورة" آدم وزوجه قد بدت لحظة الأكل من الشجرة، ونحن نظن أن هذا مما أشكل الأمر برمته على العامة وأهل الاختصتاص على حد سواء: أي إشكالية فهم قصة الخلق الأول كما يصورها كتاب الله أحسن تصوير. لذا سنتجرأ على تقديم مفهوم للسوءة نظن أنه أكثر دقة وتميزاً عن ما هو مألوف عند العامة وأهل العلم.

افتراء من عند أنفسنا: نحن نفهم (ربما مخطئين) بأنه عندما بدت لآدم وزوجه سوءاتهما لحظة الأكل من الشجرة، لم تكن فقط العورة (بمفهومها عند العامة) وإنما أجزاء معظم الجسم. فنحن نرى أنّ كلمة سوءاتهما لا تشير فقط إلى "العورة المقصورة" وإنما تعني "العورة الممتدة" حتى تشمل أحيانا الجسد بأكمله. وسنحاول الآن الدفاع عن هذا الفهم، كما سنحاول التعليق على تبعات هذا الفهم، ثم ربط ذلك بما بدأنا به في هذا المقام وهو ظننا المفترى من عند أنفسنا بأنّ الله لم يمنع آدم عن الشجرة اختباراً له (كما ظن كثير من الناس) وإنما حتى لا يصيب آدم مكروها (كما نظن)، وسنحاول كذلك إثبات أنّ ذلك كله تم وآدم على علم ودراية بالأمر برمته.

معنى مفردة السوءة: نحن نظن بأن مفردة سوءاتهما، قد تشير إلى الجسد بأكمله، ودليلنا على ذلك يأتي تباعا على النحو التالي:

أولا، لعلنا جميعاً على دراية بقصة ابني آدم حيث قتل الأخ أخاه، فعجز عن موارة سوءته:

- ﴿۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٢٧ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٩ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٣٠﴾ [المائدة: 27-30]

فما الذي حصل بعد أنْ طوعت له نفسه قتل أخيه؟ أليس هو الندم، ولكنّ هل نفعه ذلك الندم بعد فوات الأوان، وما دام أن القاتل لا يستطيع أنْ يعيد أخاه إلى الحياة، فماذا كان بمقدوره أن يفعل بسوءة (جثة) أخيه المقتول كاملة؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نتخيل الموقف على نحو أن الأخ القاتل قد وقف حائراً لا يعلم ما يفعل حتى بعث الله ذلك الغراب ليريه ما يفعل بسوءة أخيه:

- ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ٣١﴾ [المائدة: 31]

ليكون السؤال الآن: ما الذي تعنيه مفردة السءة إذا ما استحضرنا هذا السياق القرآني حيث ترد المفردة؟

لعل القارئ الكريم قد أدرك ما نجهد أنفسنا الوصول إليه، فهل "سَوْءَةَ أَخِيهِ" مقصورة على العورة؟ أي هل كان ابن آدم القاتل يبحث عن مواراة عورة أخيه المقتول فقط؟

رأينا المفترى: كلا، لقد كان القاتل يريد مواراة الجثة بأكملها، فلربما أنّ "عورة" أخيه لم تكن مكشوفة لحظة أنْ قتله. وهنا لا بد أنْ نطلب من القارئ الكريم إمعان النظر بتطابق الألفاظ في حالة الحديث عن سوءة ابن آدم المصروع (يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ)، وما كان لآدم وحواء في مكان آخر من القرآن الكريم:

- ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ٢٠﴾ [الأعراف: 20]

فهل تعني مفردة "سوءة" العورة في هذه الآية الكريمة؟ وإنْ كان كذلك، ألا ترى إذن أن المقصود بالمواراة هو ليس العورة وإنما جزء منها بدليل قوله تعالى "لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا"؟ أي هل تكشف جزء من العورة ووري جزء آخر؟

الجواب: النفي بكل تأكيد. ولعل الروعة في هذه الآية القرآنية أنّها تشير إلى مواراة (ولنقل مجازاً تغطية) الجسد ولكن ليس كل الجسد وإلا لفهمنا أنّ آدم وحواء قد غطوا أجسادهم بأكملها بما فيها الوجه والكفين وهكذا. وحتى لا يبدأ البعض الرد بالقول أن الحالتين مختلفتين (حالة آدم وزوجه من جهة وحالة ولديهما على الأرض من جهة أخرى) فقد لا نحتاج أن نرد بأكثر من التأكد من تطابق الألفاظ، ففي كلتا الحالتين استخدمت لفظة سوءة (برسمين) واستخدم الفعل "المواراة"، وفي كلتا الحالتين جاء الحديث عن السوءة "أي الجسد" بعد الوقوع في المحظور (كما يقال على لسان العامة)، فآدم يأكل من الشجرة وولده يقتل أخاه، أليس كذلك؟

نتيجة مفتراة: نحن نفتري الظن بأن مفردة "سوءاتهما" تعني إذاً أي جزء من الجساد/ الجسم، صغر ذلك أم كبر حتى ولو كان الجسد بأكمله ، وبهذا نعتقد أنّ الله سبحانه قد حذر آدم وزوجه من الأكل من الشجرة حتى لا تبدوا ما وري عنهما من أجسامهم الفيزيائية، وهذا يعني بالضرورة أنّ آدم وزوجه كانا يقطنا الجنة وأجسامهم التي نراها اليوم على نحو مغاير تماما، لقد كانا (نحن نتخيل) في هيئة وماهية على غير هذه التي نعرف، وما بدت (تكشفت) تلك الأجسام إلا لحظة الأكل من الشجرة، وهنا سيرد البعض بالسؤال: هل فعلاً كان آدم وحواء يقطنان الجنة بلا أجسام "سوءة" فيزيائية؟

جواب: نقول كلا، لقد كانا يسكنان الجنة بأجساد/أجسام، ولكنها لم تكن بادية "أي ظاهرة". وقد يقول البعض وكيف ذلك؟ فنرد على هذا التساؤل بتساؤل آخر أكثر إثارة ربما وقع في خاطر أحدكم في يوم ما وهو: لماذا لا نرى نحن (بني آدم) الجن بينما الجن يرانا؟ ولماذا لا نرى نحن الملائكة بينما هم يرونا؟ لماذا نحن الجنس البشري فقط نُرى ولا نَرى؟

- ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٧﴾ [الأعراف: 27]

رأينا المفترى: نعم، لقد كان آدم وزوجه يقطنان الجنة بأجسام غير بادية كأجساد الجن أو الملائكة في كيفيتها، ولكنها مختلفة في ماهيتها. فالشيطان نجح بفعلته تلك في أنْ ينزع عن آدم وزوجه لباسهما الذي كان يسترهما حتى يصبحا عرضة للأذى الشيطان، فبدلاً من ذلك اللباس الذي كان يواري سؤاتهما أصبح آدم وحواء بحاجة إلى لباس جديد ... "وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ".

تبعات هذا الافتراء

لعل لهذا الفهم تبعات جمّة، يتمثل أبرزها في أنه يمكننا إعادة النظر بمواقف أخرى من القرآن الكريم تضاربت الآراء فيها، ولعلني أجد من المفيد مقارنة ما سأزعم بعد قليل مع ما جاء في كتب التفسير بخصوص الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخۡرَىٰ ٢٢﴾ [طه: 22]

فكيف كان موسى (نحن نسأل) يخرج يده من جيبه (من غير سوء)؟ هل حقاً كان يخرجها من غير برص كما جاء في كتب التفسير الرئيسة؟ وهل فعلاً كان موسى يعاني من البرص حتى تخرج يده من غير برص؟ فهل كان بقية جسمه كذلك؟

رأينا المفترى: نحن نعتقد أنّ في ذلك الرأي (الذي نظن أنه مما نقل من كتابات بني إسرائيل) تجنى على موسى عليه السلام وهو الذي قال فيه رب العالمين:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ٦٩﴾ [الأحزاب: 69]

وأود التنبيه أن من يدعى مثل هذا الكلام هم أنفسهم يقتبسون حديثاً عن النبي الكريم يؤكد مفاده أنّ نبي الله موسى كان في جسمه على أحسن ما خلق الله. لذا، نحن نرى أن أنّ هناك تفسيراً ربما يكون أكثر وجاهة وأليق بمقام نبي الله موسى. فما هو؟

رأينا المفترى: إنّنا نزعم الظن بأنّ موسى كان إذا أدخل يده في جيبه أو إذا ضم يده إلى جناحه، كانت تخرج بيضاء "مِنْ غَيْرِ سُوءٍ" أي بيضاء "من غير جسد مادي"، وبكأنها (نحن نتخيل) نور ساطع. وكذلك كان – في ظننا- آدم وزوجه في الجن، لقد كانت أجسامهم " بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ". فكان آدم وزوجه في الجنة بلا شك على غير الحالة التي أصبحوا عليها خارجها، وذلك بسبب التحول أو التغير الذي حصل على أجسادهم/أجسامهم، وهذا بالضبط ما كان الله قد حذر آدم من الوقوع فيه، وذلك لأنّ:

- ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥٧﴾ [البقرة: 257]

فمهمة الطاغوت ليست أكثر من إخراج الناس من النور إلى الظلمات، كمل فعل مع آدم يوم أنْ أوقعه في شركه.

وقد لا يزال القارئ مستغرباً أنَ آدم كان في الجنة جسداً "أبيضاً" خالصاً "كالنور"، وحتى يتبين القارئ وجاهة ما نقول، فليحاول معنا ربط الآيات القرآنية التالية بعضها ببعض:

- ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الحجر: 29]
- ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [ص: 72]

فمن أين جاء ذلك النور إلى جسد آدم وهو المخلوق أصلاً من تراب؟ أليس في هذه الآيات الكريمة بيان لمصدر هذا النور؟ ألم ينفخ الله في آدم من روحه بعد أن سوّاه، وإذا كان كذلك، ألا يحق لنا أن نسأل: ما الذي اكتسبه آدم من النفخ المباشر من الذات الإلهية؟

رأينا المفترى: إننا نؤمن يقيناً بأنّ شيئاً عظيماً تحصّل لآدم لحظة أنْ نفخ الله فيه من روحه، فالنفخ كان مباشراً ولا يمكن تحت أي حال من الأحوال أنْ يكون من حصل على الحياة بنفخة مباشرة من الله كمن حصل عليها بأي طريقة أخرى، ولكن السؤال البسيط الذي لابد من طرحه هنا أيضاً هو: ما هو ذلك الشيء؟ ما الذي اكتسبه آدم من النفخة الإلهية بعد أن سواه الله بيديه؟

جواب: لنقرأ الآيات الرائعة التالية:

- ﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ [النور: 35]
- ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الزمر: 69]

نعم، ذلك ما اكتسبه آدم من تلك النفخة، لقد أصبح جسده "أبيضاً من غير سوء" وما بدى ذلك السوء إلا بعد أن ذاق الشجرة التي حذره الله من الأكل منها.

وقد يحتج البعض بأنّ الله قد خلق آدم من طين:

- ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾﴾ [ص: 71]

ويكأن في قولهم هذا سؤال مفاده: كيف تزعم أن آدم كان في الجنة "أبيضا من غير سوء" وخلقه جاء أساساً من طين؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: ألم يثبت الله سبحانه أننا نحن البشر خلقنا من طين؟

- ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنعام: 2]

فهل نظهر لبعضنا البعض على أنّنا طينا؟ كيف اصبح ذلك الطين دما ولحما؟

الافتراء: إنّ مادة الطين كانت أساس الخلق، ولكن تجلى ذلك الطين للناظر "أبيضاً من غير سوء في حالة آدم" بسبب نفخة الله فيه، وأصبح دماً ولحما لمّا أكل آدم من تلك الشجرة. ولنلاحظ هذا المعنى في الآية القرآنية التالية:

- ﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ٧﴾ [السجدة: 7]

ألا يعني ذلك إذاً أنّ الطين كان بداية الخلق؟ ولعل النقطة التي يجب ملاحظتها كذلك أنّ الأكل من تلك الشجرة سبّب لآدم تحولاً في جسمه، فكيف يمكن تفسير ذلك التحول؟

رأينا المتفترى: نعم، لقد كانت مادة الخلق هي الطين ولكنّ ذلك الطين اكتسب تلك الخاصية "أي النورانية" بسبب نفخة الله فيه، وحتى يتقرب المعنى لذهن القارئ فنقول (ولله المثل الأعلى) أليس القمر مثلاً طيناً خالصاً (إن صح ما قاله لنا علماء المادة)؟ ولكن كيف يبدوا لنا ونحن ننظر إليه؟ وكيف نفسر الآية الكريمة التالية؟

- ﴿وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا ١٦﴾ [نوح: 16]

وحتى يستيقن القارئ الكريم ووجاهة ما نظن ونفتري بأنّ آدم قد اكتسب خاصية النور بعد النفخ فيه من روح الله نذكركم بحال المؤمنين في الجنة بعد العرض والحساب، قال تعالى:

- ﴿يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۖ بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٢﴾ [الحديد: 12]
- ﴿يَوۡمَ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗاۖ فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ ١٣﴾ [الحديد: 13]
- ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ١٩﴾ [الحديد: 19]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٨﴾ [التحريم: 8]

نعم، تلك هي ما ستكون عليه هيئة المؤمنين في الجنة في نهاية المطاف، وتلك كانت (نحن نتخيل) هيئة آدم وزوجه في بداية الأمر قبل الوقوع في الذنب، فلقد كان آدم وزوجه (كما سيكون المؤمنون بعد الحساب) نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ. وإذا صح هذا الافتراء الذي هو من عند أنفسنا، فربما يحق لنا أن نطرح التساؤل التالي: كيف يمكن للناظر لذاك النور أنْ يرى العورة (أو أي جزء من الجسم إنْ كان هو نورا) فيه؟ ولهذا نرى الدقة في التصوير القرآني أنّ نور المؤمنين يسعى بين أيديهم وبأيمانهم، ونحن نعتقد أنّ في هذا الفهم ربط طبيعي بين بداية الخلق ومنتهاه، فالخلق بدأ بآدم في الجنة في كيفية وماهية سينتهي

العباد كلهم إليها بعد الحساب والثواب، وربما لهذا السبب قال الله في موقع آخر عن تكشف جسد آدم وزوجه:

- ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ٢٠﴾ [الأعراف: 20]

ولعل في هذا رد أيضاً (كما أسلفنا) على من اعتقد أنّ السوءة تعني "العورة" المقصورة فقط، لأن ذلك يعني بالضرورة ويكأنّنا ندعي أنّ جزءاً من العورة كان باديا وجزء كان مخفيا بدليل قوله مِن سَوْءَاتِهِمَا، وعندها يكون المعنى أنّ السوءة بأكملها تبدّت لحظة أنْ ذاقا الشجرة، وهذا ما لا يمكن تعقله، فلا يمكن القول أنّ جزءا من العورة كانت ظاهرة لآدم وزوجه قبل الوسوسة حتى يتبدى الجزء المتبقي منها بعد الوسوسة إن كانت الوءة تعني العورة بالمفردات الدارجة. أما إمكانية أن يكون جزء من الجسد كان ظاهرا (كالوجه مثلا) قبل المعصية ثم تبدى ما كان قد وري عنهما بعد الوقوع في الذنب فهذا – برأينا- أكثر منطقية وأجدر بالفهم.

ولعلنا نجد من الأهمية هنا التنويه أيضاً إلى أن ذلك النور كان هو لباس آدم في الجنة، فلا أخال أن آدم كان يلبس ثيابا مخيطة من القطن أو الصوف ونحوهما؟ كلا، لقد كان لباسهما ذلك النور الذي يكفي لستر ما لا يحبب أنْ يظهر من الجسم، ولتأكيد هذه النتيجة فلنقرأ قوله تعالى:

- ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٢٧﴾ [الأعراف: 27]

فيكون السؤال المشروع الآن على النحو التالي: ما هو ذلك اللباس الذي استطاع الشيطان بفعلته أنْ ينزعه عن أبوينا آدم وزوجه؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: لقد كان لآدم وزوجه لباس في الجنة يستر ما لا يجب أنْ يظهر من الجسد، فتمكن الشيطان من نزعه عنهما، فماذا كانت ماهية ذلك اللباس؟ وما الذي نُزِعَ عن آدم وزوجه بعدما أكلا من تلك الشجرة؟

رأينا المفترى: ما دام أنّ آدم كان نورانياً في الجنة، وما دام أنه قد اقتبس ذلك النور من ربه الذي نفخ فيه، فما يكون لذلك النور (نحن نظن) أنْ يدوم مادام أنّ شيئاً من الشر (عمل الشيطان) قد دخل في جسم آدم وزوجه . لذا نحن نتخيل أنه ذلك النور الألهي قد "انطفأ" عندما ابتعد آدم عن مصدر ذلك النور (وقد تحدثنا سابقاً عن كيفية استخدام أسماء الإشارة "هذه" و"تلك" قبل وبعد المعصية)، فلقد كان ذلك هو هدف الشيطان ومن التف حوله من الجن والإنس:

- ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ٣٢﴾ [التوبة: 32]

ولكنّ علينا ألا ننسى أن الله تقبل توبة آدم (كما يتقبل دائماً توبة عباده كلهم) كما جاء قوله في سورة التوبة تكملة للآية السابقة:

- ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ٣٢﴾ [التوبة: 32]

*** *** ***

ويبرز هنا تساؤل غاية في التحدي مفاده كالتالي: إذا كان الله لم يرد لآدم إلا الخير، فحذره من الأكل من الشجرة حتى لا يحصل له مكروه بسبب الأكل منها، فلِمَ كانت الشجرة أصلاً موجودة؟ لِمَ لَمْ يبعد الله الشجرة عن آدم بدلاً من أنْ يطلب من آدم وزوجه عدم الاقتراب منها؟

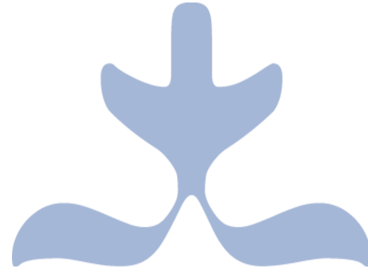
رأينا المفترى: نحن نفتري الظن أولاً وقبل كل شيء أنّ هذا دليل كاف على أنّ تلك الجنة التي كان يسكنها آدم وزوجه قبل المعصية لم تكن جنة الخلد، وذلك لأنّ من صفات تلك الجنان:

- ﴿وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ ۝٣٢ لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ ۝٣٣﴾ [الواقعة: 32-33]

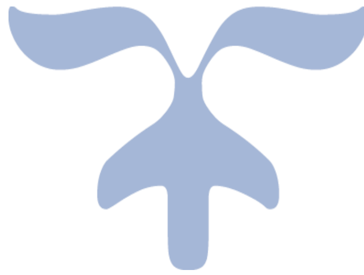
لذا، فآدم كان يسكن مع زوجه في جنة الأصل في الأشياء فيها الإباحة (فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا) المقننة ببعض الضوابط (وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ)، وهذا يدل أنّ الوقوع في المعصية فيها أمر وارد كما حصل فعلاً (عندما أكلا من تلك الشجرة المحضورة عليهم)، ليكون السؤال الآن: لم كانت الشجرة موجودة في تلك الجنة أصلا؟

رأينا المفترى: نحن نعتقد – ابتداء- أنّ وجود تلك الشجرة في تلك الجنة هو أمر لازم للعدل الإلهي، فلو لم تكن الشجرة موجودة في المكان الذي كان يسكنه آدم، لما تأتى لآدم الاختيار أصلا، ولأصبح الوقوع في المعصية من الأمور المستحيلة. ولعل كان الأمر على تلك الشاكلة، لأصبح آدم وزوجه (ومن بعدهم ذريتهم) مسيرين كما هي حال بعض الملائكة (لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ). إن مراد القول هنا أن وجود الشجرة المحضورة في جنة آدم يدلنا على أنّ الله قد منح آدم إرادته الخاصة المستقلة عن إرادة ربه (كما نحمل نحن ذرية آدم إرادتنا الخاصة المستقلة عن إرادة الله. فلقد كان آدم (نحن نرى) يسكن في مكان لا يسير كله بإرادة الله وحده (كلام خطير جداً، أليس كذلك؟)، نعم إننا ندعي أنّ ذلك العالم -كما هو عالمنا اليوم- لا يسير كله بإرادة الله وحده. وحتى يستبين القارئ معنى ما نقول نحيله مباشرة إلى مقالتنا التي تتعرض لأمر أوقع الفكر الإسلامي قديماً في إشكالية تعذر معها إفهام العامة، حتى غدا ذلك أمراً يخص فلسفة خاصة الخاصة: إنها إشكالية التسيير والتخيير، فهل الإنسان مسير أم مخير؟

(للتفصيل أنظر مقالاتنا تحت عنوان التسيير والتخيير)



ترادف أم تطابق ج1



ترادف أم تطابق؟ ج1

السؤال المحوري: هل مفردات النص القرآني مترادفة؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نعم. كل مفردات القرآن في آياته المتشابهات مترادفة. انتهى.

الدليل

اختلف أهل اللغة وأهل الدين حول قضية الترادف في المفردات خاصة في كتاب الله، فالبعض أثبتها، بينما نفاها آخرون نفيا قاطعا. وكان لهذا الاعتقاد المبدئي تبعات جمة على طريقة فهم كلمات القرآن الكريم. فاختلفت الأفهام، وتشعبت الآراء، حتى أنتجت في نهاية المطاف فرقا ونحلا وطوائف تتصارع حول افتراءات لا تعدو أكثر من أفهام بشرية للنصوص الدينية. والقارئ المتابع لآراء أهل العلم يقع في حيرة إلى أي الفريقين ينتمي. لكن ما يشغلنا هنا هو قضية مبدئية نظن أن الفريقين قد أخطأوا فيها، ألا وهي فهم الطرفين لمعنى الترادف في المقام الأول. ففي حين أن الذي أكدها قد قصد (بوجه علم) وجود مفردات متعددة للمسمى واحد، مثل مفردتي الجبال والرواسي أو الفلك والسفينة أو السنة والعام، وهكذا، أكد الرافضون لهذا المنطق أن هذه المفردات هي مفردات مختلفة، لا تقع في باب الترادف اللفظي. فالفريق الأول يثبت الترادف بينما ينفيه الفريق الثاني نفيا قاطعا.

أما نحن، فإننا نتخذ موقفا مبدئيا يعارض الطرفين معارضة تامة، وذلك لظننا أن الطرفين (نكرر القول) قد أخطأوا في تعريف (وبالتالي فهم) معنى الترادف. فقراءتنا لأدبيات الطرفين تبين لنا (ربما مخطئين الفهم) بأنهما قد قصدا بالترادف التطابق في المعنى. وهذا ما نظن أنه قد أوقع الطرفين في إشكالية فهم المفردات كما جاءت في كتاب الله. ولتبيان الأمر من وجهة نظرنا علينا أن نعيد فتح الملف من أوله، طارحين التساؤل المبدئي التالي: ما هو الترادف؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن ننفي جملة وتفصيلا أن يكون الترادف يعني التطابق، فعلينا أن نفرق إذا بين التطابق (sameness of meaning) من جهة، والترادف (similar meaning) من جهة أخرى. فالتطابق (نحن نفتري الظن) يعني أن المفردتين لهما المعنى ذاته، وهذا – برأينا- يستحيل من منظور لغوي بحت، فلا يمكن (نحن نرى) أن تجد مفردتين (حتى في اللغة البشرية) تتطابقان تماما في المعنى، ولو حصل هذا، لانتهى الأمر (مع مرور الوقت) إلى اختفاء واحدة منهما على حساب الأخرى. لكن مادام أن المفردتين متوافرتان في اللغة الواحدة جنبا إلى جنب، فهذا يعني (برأينا) أنهما غير متطابقتين، فهناك – بالضرورة- اختلاف (مهما كان قليلا) بينهما. فنحن في اللغة العربية – على سبيل المثال- نستخدم على الأقل مفردتين للتعبير عن الشك، هما "قد" و "ربما"، لكن على الرغم أن كلاهما يلقي ظلال الشك على الفعل المتحدث عنه، إلا أنه يبقى هناك فرق جوهري بين المفردتين، فـ "قد" تحمل بعض المعاني والاستخدامات التي لا تحمله "ربما"، والعكس صحيح. وبخلاف ذلك، تنتفي الحاجة إلى أن يتواجدا معا في اللغة البشرية، ناهيك عن اللسان المبين الذي جاء به القرآن الكريم.

نتيجة مفتراة: التطابق يعني أن المفردتين يحملان المعنى ذاته، وهذا من الاستحالة بمكان أن يوجد في أي لسان حتى وإن كان غير مبين

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن ننكر مفهوم التطابق بين المفردات، بمعنى أنه لا وجود لمفردتين في الكلام تتطابقان تماما في المعنى.

أما الترادف فهو – بالمقابل- لا يعني التطابق بأي حال من الأحوال، وإنما يعني الاشتراك في المعنى. فمفردتا الجبال والرواسي مترادفتان، لكنهما ليستا متطابقتين. فهما يشتركان في معنى (ربما جوهري)، لكنهما يختلفان في معان أخرى. ومهمة أهل الكلام تتمثل في النبش في الفرق بينهما، لاستخراج دقائق المعاني التي ترشد في الوصول إلى الحقائق التي يبينها النص الديني للناس أجمعين. ولا يجب بأي حال من الأحوال نفي أنهما تشتركان ببعض المعاني، وتختلفان في معان أخرى. فكلاهما (أي الجبال والرواسي) تتحدثان عن تلك الكينونة التي نعرفها نحن (العامة) تحت مسمى الجبل، لكن الدقة اللفظية المعهودة في كتاب الله تلزمنا أن نفهم أن الجبال شيء والرواسي شيء آخر وإن كانتا تشيران إلى الكينونة ذاتها بعموم اللفظ، وتفرقا بينهما بخصوص اللفظ

والمنطق ذاته، ينسحب (نحن نفتري الظن) على مفردتي العام والسنة، فهما مترادفتان، لكنهما ليستا متطابقتين. فالعام شيء، والسنة شيء آخر، وإن كانتا كلاهما – في الوقت ذاته- معيارين لقياس الزمن (للتفصيل انظر مقالتنا تحت عنوان: كم لبث نوح في قومه؟)

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا (1) معادة: نحن نظن بأن التطابق يعني أن المفردتين لهما نفس المعنى (أو ما يسمى بالمفردات الأجنبية sameness of meaning)، وهذا – لا شك عندنا- يستحيل وجوده في الكلام حتى البشري منه، ناهيك عن كلام العزيز الحكيم.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا (2): نحن نظن بأن الترادف هو اشتراك المفردتين في بعض المعاني (بعموم اللفظ والمعنى)، واختلافهما في البعض الآخر. والاختلاف بينهما جوهري (بمقصود اللفظ والمعنى)، وهو ما نحتاج النبش فيه لفهم النص القرآني على مقصده، وهذا ما يسمى بالمفردات الأجنبية (similar meaning)، أو التشابه في المعنى (كما نسميه نحن).

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن ننفي وجود التطابق في المفردات ولكننا نثبت التشابه بينها، وهذا التشابه هو ما يسمى بالترادف (synonymy) في النظريات اللغوية العالمية.

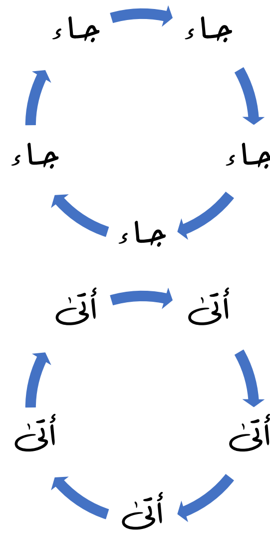
ومما لا شك فيه – عندنا- أن الترادف (أو التشابه) متوافر بكثرة في كتاب الله، ودليلنا قوله تعالى:

- ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ٢٣﴾ [الزمر: 23]

فأحسن الحديث (الذي أنزله الله) كله متشابه (أي مترادف بمصطلحاتنا الحالية). فالمفردات ترادف (أي تساند) أو لنقل تعاضد بعضها البعض لتشكل في نهاية المطاف شبكة متكاملة من المعاني الحقيقية التي من خلالها نستطيع فهم السياقات القرآنية على مقاصدها اللفظية الحقيقية. فاللفظ مقصود بذاته، ويستحيل أن تبدل كلمة في كتاب الله بغيرها في السياق ذاته. فالمفردات المترادفة تتقاطع مع بعضها البعض في بعض المعاني، لكن حجم هذا التقاطع يختلف من حالة إلى أخرى.

مثال

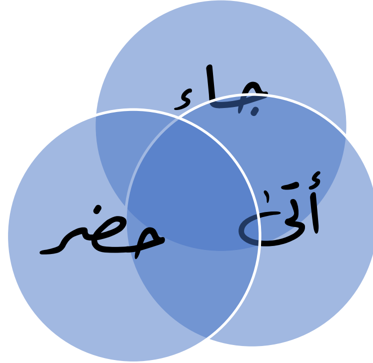
لو أخذنا مفردتين مثل "جاء" و "أتى"، ربما نجد أن التقاطع بينهما كبير، لكن هذا لا ينفي أن تبقى بينهما بعض الاختلافات الجوهرية التي تحددها السياقات التي تستوجب استخدام المفردة أو الأخرى. ولتبسيط الصورة إلى ذهن القارئ الكريم، دعنا نتخيل أن كل مفردة تشكل دائرة من المعاني، كما في الشكل التالي:



لكن، مادام أن المفردتين مترادفتان (أي متعاضدتان)، فهما إذا ليستا منفصلتين تماما عن بعضهما البعض، بل تتداخلان (فتتقاطعان) بشكل كبير، لكن هذا التداخل لا يصل إلى درجة أن تتطابقا تماما، فيبقى هناك دائما حيز (أو لنقل مساحة) من الاختلاف مهما صغر أو كبر بينهما، فيصبح الشكل التوضيحي على النحو التالي:



والمنطق نفسه ينطبق في حالة وجود أكثر من كلمتين تترادف مع بعضها، فقد نحتاج – على سبيل المثال – أن نميّز بين "جاء" و"أتى" و"حضر"، فتكون صورة الترادف بين هذه المفردات على نحو الشكل التوضيحي التالي:



فمفردة "أتى" تتقاطع مع "جاء" و "أتى" معا من جهة، وتتقاطع مع كل واحدة منهما من جهة أخرى، لكن يبقى لها من المعاني ما يميزها عن الاثنتين معا، والمنطق نفسه ينطبق على "جاء" وعلى "أتى".

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: المفردات تتشابه (تترادف) لكنها لا تتطابق.

باب تحديد معنى المفردة

لكن يبقى التساؤل المطروح الآن هو: كيف تكتسب كل مفرده معناها الكلي (المتمثل بالمعنى الذي تتقاطع به مع غيرها والمعنى الذي يميزها عن غيرها)؟

رأينا المفترى: غالبا ما سوّق أهل الكلام (الرافضون لـ والمنادون بـ الترادف) فكرة السياق، على نحو أن المفردات تكتسب معناها من السياقات التي ترد فيها، وبكأن لسان حالهم يقول بأن المفردة (أي مفردة) تكتسب معناها من السياق الذي ترد فيه، وهم بذلك (نحن نظن) يروّجون لفكرة مفادها أن المفردة الواحدة لها أكثر من معنى. وهذا افتراض نظري – برأينا- مرفوض تماما. فنحن نؤمن أن المفردة الواحدة لا تحمل أكثر من معنى واحد، هو المعنى الأساسي القطعي للمفردة. ونظن أيضا (ربما مخطئين) أن ورود الكلمة في أكثر من سياق ليس أكثر من استخدامات متعددة للمفردة ذاتها، تجتمع كلها عند المعنى الحقيقي للمفردة. لذا، نحن نقترح بأن تكون مهمة أهل الكلام هو محاولة تحديد المعنى الحقيقي لكل مفردة. والغريب في هذا الطرح (ربما غير المعهود) أن معرفة المعنى الحقيقي للمفردة سينسحب على كل السياقات التي ترد فيها تلك المفردة، أي يمكن اسقاط هذا المعنى الحقيقي على السياق (إن صح استنباطه) لدرجة أن لا تجد في ذلك غرابة. فالسياقات المتنوعة تتقبل المعنى الحقيقي لكل مفردة ترد فيه. وبهذا نصل إلى النتيجة المفتراة من عند أنفسنا الخطيرة جدا جدا التالي: السياقات تكتسب معانيها من الألفاظ وليس العكس.

تلخيص ما سبق

إن أبسط ما يمكن استنباطه من هذا الطرح هو أن نظرية السياق (ذائعة الصيت بين أهل الكلام) تحتم علينا الفهم الشائع بأن المفردات تكتسب معانيها من السياقات الواردة فيها، وهذا ما ننفيه جملة وتفصيلا، لأن هذا يعني بأبسط التعابير أن للكلمة الواحدة أكثر من معنى واحد بناء على عدد السياقات التي ترد فيها تلك المفردة، ويكأن لسان حالهم يقول بأنه غذا وردت مفردة ما في عشر سياقات قرآنية مختلفة، قد يكون لها عشر معان مختلفة (وإن كانت متقاربة)، بينما غذا وردت مفردة أخرى في سياق قرآني واحد فقط، يكون لها معنى واحد. فبالنسبة لهم يكون عدد معان المفردة تقريبا بعدد سياقاتها الواردة فيها (one-to-many). وهذا الافتراض هو الذي نرفضه جملة وتفصيلا. وبالمقابل، فإننا نحاول تسويق الافتراض البديل التالي: أن نطرح نظريات السياق (أو context-driven meanings) كلها جانبا عند محاولتنا البحث عن المعاني الحقيقية للمفردات القرآنية، وأن نحاول أن نتفهم الأمر بالطريقة المعكوسة تماما، ألا وهي أن السياقات تكتسب معانيها من مجمل (أو لنقل مجموع) معاني مفرداتها (compositionality approach). فسواء وردت المفردة مرة واحدة في كتاب الله (كمفردة الماعون مثلا) أو وردت عشرات المرات (مثل مفردة قال)، فإنه لا يكون لكل واحدة منها إلا معنى حقيقي واحد. فعلاقة بين المفردة ومعناها هي علاقة واحد إلى واحد (one-to-one) انتهى.

تبعات هذا الظن

نحن نظن أن أول انعكاسات هذا الفهم يتمثل بالاعتقاد الجازم بأن المفردات القرآنية (كجزء من اللسان المبين) هي مفردات حقيقية ذات دلالات محددة بعينها بعيدا عن سياقاتها، وما أن ترد المفردة في أي سياق قرآني حتى تشارك بمعناها الحقيقي مع المفردات الأخرى الواقعة في السياق ذاته ليتجلى معنى ذلك السياق حقيقة واضحة للعيان. ولتبسيط الصورة بالمثال، نحن نظن بأن معنى "جاء" هو المعنى ذاته حيثما وردت في السياقات القرآنية، فاختلاف السياق (نحن نفتري الظن من عند أنفسنا) لا يغير من معنى المفردة، وإنما يتغير معنى السياق بتغير مفرداته. فالأصل هو الكلمة، والسياق ليس أكثر من تطبيق فعلي لهذه المعاني الحقيقية للمفردات الواردة فيه. وحتى يستبين القارئ الكريم -إن أراد- وجاهة ما نفتري من عند أنفسنا من ظن، دعنا نحاول تطبيق ذلك على المفردات الثلاث المترادفة، أي المتشابهة والمتقاطعة (ولكن غير المتطابقة) في المعاني، وهي "جاء" و "أتى" و "حضر".

باب: جاء وأتى وحضر

نحن نفتري القول بأن هناك فروقا جوهرية بين هذه الألفاظ (أو لنقل الأفعال) الثلاثة المترادفة ولكن غير المتطابقة، نذكر منها ما يلي:

أولا، نحن نظن بأن الفعل جاء – مثلا- يحمل في ثناياه (حيثما ورد في النص القرآني) معنى المفاجأة، على عكس الفعل أتى الذي يكون تدريجيا متوقعا لا يُحدِث عنصر المفاجأة عند الطرف الآخر، وانظر عزيزي القارئ – إن شئت- التناوب اللفظي بين الفعلين في الآية التالية من قصة مريم:

- ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ۝٢٧﴾ [مريم: 27]

ففي حين أن مريم قد أتت قومها، وذلك لأن قدومها بنفسها إلى قومها لم يكن يشكل (نحن نظن) مفاجأة لهم، إلا أن مجيئها بشيء تحمله هو الذي سبب المفاجأة عندهم (لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا). لذا، نحن نظن (ربما مخطئين) بأن الإتيان لا يحدث على عجل، وإنما على التراخي، فهذه مريم قد أتت قومها بمولودها، وذلك لأنها لم تكن (نحن نظن) متحمسة جدا أن تصل إليهم بسرعة:

- ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾﴾ [مريم: 27]

ولو تدبرنا قصة حضور إخوة يوسف عند أخيهم في أرض مصر للمرة الأولى، لوجدناها قد وردت بفعل المجيء:

- ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يوسف: 58]

فنحن نتخيل أن الإخوة حينئذ كانوا في عجلة من أمرهم، والأهم من ذلك أن مجيئهم قد أحدث مفاجأة عند يوسف نفسه. فلم يكن يوسف – نحن نفتري القول- يظن أنه سيرى إخوته من جديد في ذلك الوقت بالذات (من خلال هذا التدبير الإلهي). (للتفصيل انظر سلسلة مقالاتنا تحت عنوان قصة يوسف)

ثانيا، على عكس الفعل "أتى" الذي يحمل في ثناياه عنصر التدرج والتراخي، فإن الفعل "جاء" يحمل - نحن نزعم - في ثناياه بالإضافة إلى عنصر المباغتة والمفاجأة عنصر السرعة:

- ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا ...﴿١٤٣﴾﴾ [الأعراف: 143]
- ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَـٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنبياء: 44]

ففي حين أننا نعلم أن مجيء موسى لميقات ربه كان على عجل:

- ﴿۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾﴾ [طه: 83]

فإن نقصان الأرض من أطرافها يحدث بطريقة تدرجية بطيئة (للتفصيل انظر مقالتنا تحت عنوان: لماذا نصلي خمس مرات في اليوم والليلة؟).

وليس أدل على أن الفعل "أتى" يدل على البطء في الحركة (نحن نظن) مما جاء في قوله تعالى:

- ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾﴾ [النحل: 1]

ثالثا، نحن نظن أيضا بأن الفعل أتى مقصود لذاته، فهذا سليمان – مثلا- قد أتى (أي ذهب قاصداً) واد النمل مع جنوده:

- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [النمل: 18]

(للتفصيل انظر مقالتنا تحت عنوان مادلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته: باب النمل)

وربما يصدق ظننا هذا (أن الإتيان لا يكون إلا إلى مكان مقصود لذاته) السياقات القرآنية العديدة (كما نفهمها):

- ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾﴾ [مريم: 27]
- ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [التوبة: 70]
- ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [يوسف: 31]
- ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾ [الذاريات: 41-42]
- ﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾ [البقرة: 189]
- ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾﴾ [البقرة: 223]
- ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الأعراف: 138]
- ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [النور: 49]
- ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾﴾ [الفرقان: 40]

رابعا، نحن نظن بأن أحد الفروقات الأخرى بين أن "يأتي شي ما" و "أن يجيء" ربما يكمن في حالة الوصول، فإذا ما أتى شيء ما، فليس بالضرورة أن يكون قد وصل إلى نهايته بعد:

- ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾﴾ [النحل: 1]

فعلى الرغم أن أمر الله قد أتى، إلا أنه لم يصلنا بعد بدليل أننا لا يجب أن نستعجله. ولكن – بالمقابل- عندما يجيء الشيء فإن ذلك يدل – لا شك- على الوصول المباغت والكلي. وانظر – إن شئت- عزيزي القارئ في السياقات القرآنية التالية:

- ﴿إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [طه: 40]
- ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾﴾ [هود: 82]
- ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾ [يوسف: 50]
- ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾﴾ [النمل: 8]

- ﴿فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٥﴾ [القصص: 25]

دعنا نطبق هذه المعاني السابقة كلها على سياق واحد لنرى كيف تجتمع كل هذه العناصر معا لتشكل المعنى الحقيقي للمفردة، ولنأخذ الآية الكريمة التالية على سبيل المثال للتدليل على هذا المنهج:

- ﴿فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥۖ قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ٢٧﴾ [مريم: 27]

عندما رجعت مريم بعد أن وضعت مولودها إلى قومها بعد غياب قصير، كانت قاصدة قومها بذاتهم (لذا فهي قد أتت)، وقد كان قدومها إليهم غير مفاجئ لهم (لذا فهي قد أتت)، ولما كانوا يرقبون قدومها إليهم من بعيد، استغرق ذلك وقتا من الزمن لتصل إليهم، فشاهدوا قدومها منذ أن لاحت هيئتها لهم من بعيد، لكنهم (نحن نتخيل) لم يميزوا عن بعد ما ما كانت تحمله حتى وصلت إليهم. أي لم يتحقق لهم معرفية ماهية ما تحمله حتى وصولها إليهم، فكان ما تحمله هو ما سبب لهم عنصر المفاجئة، لأنهم لم يكونوا يتوقعونه.

ولا يتقاطع الفعل جاء مع آتي فقط، ولكنه يتقاطع مع أفعال أخرى مثل حضر، الذي يتقاطع بدوره مع الفعل أتى الذي تقاطع معه الفعل جاء من ذي قبل. فما هي خصائص هذا الفعل لنميزه عن الفعلين الآخرين؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الفعل "حضر يحمل في ثناياه المعاني التالية مجتمعة:

- أن الذي يحضر في مكان ما لا يكون متواجدا فيه من قبل
- أن الذي يحضر في مكان ما لا يبقى متواجدا فيه بعد ذلك إلى الأبد
- أن الذي يحضر إلى مكان ما يصل إلى المكان من أجل إتمام مهمة محددة بعينها
- الخ

دعنا نبدأ بتقديم الدليل على هذه الافتراءات بالآية الكريمة التالية:

- ﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٣﴾ [البقرة: 133]

فما دام أن الموت قد حضر يعقوب (إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ)، فهو إذن قد وصل إلى المكان الذي كان يعقوب متواجدا فيه حينئذ، ولكن الموت – لا شك عندنا- لا يسكن ذلك المكان ذاته قبل أن يحضر يعقوب، كما أنه لن يمكث فيه بعد أن يقضي على يعقوب. فالموت إذًا قد حضر ليعقوب لأنه جاء إليه في مهمة خاصة ومحددة، أليس كذلك؟ فلو تفقدنا الآية الكريمة التي تتحدث عن حضور الموتُ يعقوبَ، لوجدنا أن هذه الافتراءات جميعها متوافرة معا: فالموت حضر يعقوب من مكان آخر، والموت حضر يعقوب في مهمة خاصة (وهي أن يقضي على يعقوب)، والموت لم يبقى متواجدا في ذلك المكان بعد أن أنهى مهمته فيه. ولا ينطبق هذا المشهد على يعقوب وحده، وإنما ينطبق على كل من حضره الموت، قال تعالى :

- ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ١٨٠﴾ [البقرة: 180]

- ﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ١٨﴾ [النساء: 18]

فالموت إذن (نحن نستنبط) ينتقل من مكان إلى مكان آخر مادام أن مهمته القضاء على كل من حضره، أليس كذلك؟ وربما ترشدنا الآية الكريمة التالية (إن صح فهمنا لها):

- ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحۡشُرَنَّهُمۡ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحۡضِرَنَّهُمۡ حَوۡلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ٦٨﴾ [مريم: 68]

أن الحشر يتم في مكان غير المكان الذي تتواجد فيه جهنم، وذلك لأنه ما أن يتم حشرهم في ذلك المكان حتى يتم إحضار جزء كبير منهم بعد ذلك حول جهنم (ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا). ولو دققنا في الآية الكريمة التالية:

- ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٍ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٍ مُّحۡضَرًا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًاۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٣٠﴾ [آل عمران: 30]

لوجدنا أن هذا المنطق لا ينطبق على الأشخاص فقط بل ينسحب على الأفعال كذلك، فأعمال العباد تُحضر في يوم الحساب من مكان آخر (يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوَءٍ).

والآن، لندقق في الآية الكريمة التالية ربما لتتأكد لدينا هذه الافتراءات التي قدمناها عن معنى الإحضار، قال تعالى :

- ﴿وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلۡجِنِّ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ ٢٩﴾ [الأحقاف: 29]

فهل كان الجن متواجدون عند محمد على الدوام أم أن قدومهم كان من مكان آخر إلى هذا المكان الذي كان يتواجد فيه محمد ليستمعوا هناك القرآن؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن من يحضر مكانا ما، فهو الذي يأتي (أو يؤتي به) إلى ذلك المكان من مكان آخر. وليس أدل على ذلك – برأينا- مما جاء في نهاية الآية الكريمة نفسها. فالجن قد صُرفوا إلى محمد ليستمعوا القرآن، وما دام أنهم جاءوا إلى هذا المكان من مكان آخر، فهم إذن قد حضروه، فظلوا حاضرين ما داموا ينصتوا للقرآن، وما أن انتهت مهمة سماعهم للقرآن حتى كان الأمر قد قضي (فَلَمَّا قُضِيَ)، وما أن قضي ذلك الأمر حتى ولوا إلى قومهم منذرين، فما استمروا في المكوث في المكان نفسه الذي حضروا فيه لسماع القرآن .للتفصيل انظر مقالتنا تحت عنوان فقه الحج- رؤية جديدة الجزء السادس.

ولو دققنا في المفردة ذاتها، لوجدنا بأن الحضور لا يشكل مفاجأة لمن يتم الحضور إليه، فالمدرّس يتفقد قائمة الحضور للطلبة، ولا يشكل قدوم أي منهم إلى غرفة الدرس مفاجأة له، والطالب يحضر الدرس لأن هناك مهمة يجب انجازها، لذا نحن نقول "حضر الطالب الدرس" ولا نقول "جاء الطالب الى الدرس" إلا إن كان من المتوقع أن لا يأتي أو أنه قد غاب فترة طويلة من الزمن، وقدم إلى الدرس بعد انقطاع، وكان قدومه غير متوقعا في تلك اللحظة. ولو كان هناك اجتماعا مجدولا من ذي قبل، فكل المشاركين المتوقع قدومهم، يحضرون الاجتماع حضورا، لكن لو حدث أن دخل الاجتماع ممن ليس متوقعا حضوره، لقلنا جاء فلان إلى الاجتماع .

ولو دققنا في فعل الإتيان (أتى ومشتقاتها)، لوجدنا أنه يتقاطع على الفور مع فعل آخر جديد، وهو فعل العطاء (اعطى ومشتقاتها). وقد حاولنا في مقالات سابقة لنا التفريق بين هذين الفعلين (فعل الإتيان وفعل العطاء)، فخرجنا بتصورات جديدة عنهما. فالله قد آتى قارون الكنوز إتيانا، ولم يعطه ذلك عطاء. ليكون السؤال: ما الفرق بين أن تعطي وأن تؤتي؟

ولا يتوقف التقاطع بين هذه المفردات الثلاثة، بل تتقاطع كل واحدة منها مع غيرها بطرق مختلفة، فالفعل أتى – مثلا – يتقاطع مع الفعل أعطى بطريقة مختلفة عن الفعلين السابقين (أتى وجاء).فعلى الرغم أن كلا الفعلين (آتى وأعطى) يحملان في ثناياهما الحصول على شيء ما، إلا أن طريقة الحصول على الشيء بفعل الإتيان يختلف عنه بفعل العطاء. فالعطاء (نحن نظن ربما مخطئين) يكون دفعة واحدة بينما يكون الإتيان (كما ذكرنا سابقا) تدريجيا. قال تعالى:

- ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [إبراهيم: 24-25]

فالشجرة لا تعطي أكلها عطاء ولكنها تؤتي أكلها إتيانا، وذلك لأن ثمار الشجرة (نحن نرى) لا يأتي دفعة واحدة، وإنما يكون ذلك تدريجيا. أي شيئا فشيئا.

وبنفس المنطق (نحن نفهم) أتت الآيات الإلهية الأقوام، فكانت تباعا، أي جاءت بطريقة الإتيان وليس بطريقة العطاء:

- ﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢١١﴾﴾ [البقرة211]

وكذلك هي الحال بالنسبة لما آتاه الله لآل إبراهيم مثلا، فلم يتحصلوا عليه دفعة واحدة:

- ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾﴾ [النساء: 54]

والقرآن العظيم جاء محمدا بطريقة الإتيان:

- ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ [الحجر: 87]

فما كان لمحمد أن يعجل به:

- ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ١٦ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ١٧ فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ١٨﴾ [القيامة: 16-18]

وكذلك هي طريقة الحصول على الحكم والعلم، بالإتيان:

- ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٢٢﴾ [يوسف: 22]

فالعلم لا يتحصل دفعة واحدة، لأن الحصول عليه يكون بطريقة الإتيان.

والله هو من آتى إبراهيم رشده:

- ﴿۞وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ٥١﴾ [الأنبياء: 51]

فلا يمكن أن نتصور أن ذلك قد حصل دفعة واحدة، وإنما هي هبة تدريجية، تحصّل عليها إبراهيم شيئا فشيئا.والله هو من كشف عن أيوب ضره وآتاه أهله:

- ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ ٨٤﴾ [الأنبياء: 84]

فلا يمكن أن نتصور أن ذلك قد حصل دفعة واحدة.ونحن نتصور فعل الإتيان بالمشهد الذي حصل مع مريم، فهي من أتت قومها تحمل المسيح:

- ﴿فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥۖ قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ٢٧﴾ [مريم: 27]

لذا، يستحيل أن تكون قد حضرت في قومها فجأة، فها هي (نحن نتخيل) قادمة إليهم من بعيد، يرونها بأعينهم، فتحققوا من شخصيتها بعد أن اقتربت، حتى وصلت إليهم، وتيقنوا أنها هي مريم نفسها. لكن العطاء، بالمقابل، فإنه يحصل (نحن نفتري الظن) دفعة واحدة، وبطريقة (وقد تكون مفاجئة أحيانا)، قال تعالى:

- ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ٥﴾ [الليل: 5]

فأنت عندما تعطي شخصا شيئا ما، فإن ذلك يحصل مرة واحدة، فأنت لا تجزء الشيء الذي تعطيه، فإذا ما كان بيدي رغيفا من الخبز، وأردت أن أنقله من يدي إلى يديك، ليصبح ملكا لك بعد أن كان ملكا لي، فإن ذلك يكون عطاء، فأقول أعطيت فلانا رغيفا من الخبز، ولا يمكن أن أقول بأني قد أتيتك رغيفا من الخبز. لأن الرغيف انتقل مني إليك كله مرة واحدة.

فالله هو من وعد محمدا بالعطاء:

- ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ٥﴾ [الضحى: 5]

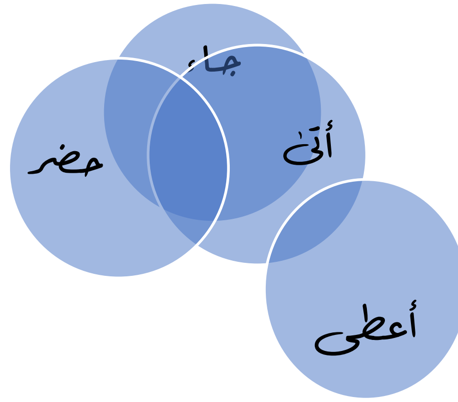
فكان عطاءه هو:

- ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١﴾ [الكوثر: 1]

فالكوثر تحصل لمحمد جملة واحدة، فكان عطاء غير مجذوذ للتفصيل انظر مقالتنا تحت عنوان فقة الحج رؤية جديدة الجزء التاسع

تلخيص ما سبق

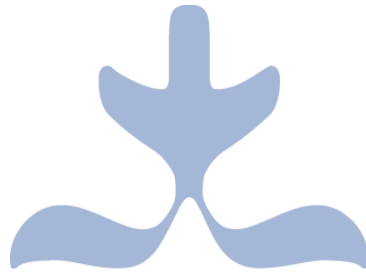
إن ما يهمنا من هذا السرد المطول هو أن الألفاظ ترادف (أي تتشابه)، فتتقاطع مع بعضها البعض ببعض المعاني، لكن تبقى لكل واحدة منها خصوصية، تبقيها مميزة بحد ذاتها، فتصبح الصورة على النحو التالي:



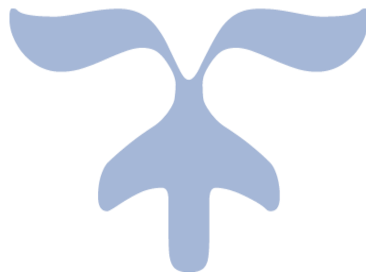
ولا شك عندنا أن حجم الاختلاف في المعنى بين المفردات يتناسب طرديا مع حجم الاختلاف في اللفظ، فكلما كانت الألفاظ متقاربة في الشكل أكثر، كلما تقاربت أكثر في المعني. وهذا ما سنحاول تبيانه في الأجزاء القادمة بإذن الله.

فالله وحده أسأل أن يعلمني ما لم أكن أعلم، وأن يزدني علما، وأن يهديني لأقرب من هذا رشدا، إنه هو العليم الحكيم.

وللحديث بقية بإذن الله
بقلم د. رشيد الجراح
18 أيار 2020



ترادف أم تطابق؟ج2



ترادف أم تطابق؟ ج2

نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن من أبجديات فهم النص القرآن هو توافر الرغبة والقدرة على إعادة النظر فيما يسمى بـ "قواعد اللغة" التي خطتها أقلام السابقين وتمسك بها اللاحقون قرونا طويلة من الزمن دون تمحيص حقيقي يؤدي – على الدوام – إلى تهذيبها بما يتماشى مع حقيقة اللسان العربي. فنحن نكاد نجزم الظن بأن ما توافر من تلك القواعد المزعومة قد بني على أساس لغة الأعراب وليس على أساس اللسان العربي المبين الذي نزل به القرآن الكريم. وسنحاول في هذا الفصل تقديم بعض الأمثلة في محاولة منّا لإثبات هذا الافتراء الذي – لا شك- هو من عند أنفسنا.

الافتراء: غالباً ما أصر أهل اللغة على آرائهم اللغوية التي إنْ صحت تتطلب مراجعات عقائدية ليستقيم فهمهم المفترى من عند أنفسهم مع المواقف العقائدية التي يتبنونها. وربما تكمن لب المشكلة في أنهم يسطرون افتراءات لغوية من عند أنفسهم ثما ما يلبثوا أن يخالفوها هم بأنفسهم عندما يجدوا أنها لا تتوافق مع النص الديني كما يفهموهم هم بأنفسهم في عقائدهم التي سطروها في مؤلفاتهم كما وصلتنا من عندهم. فهم (نحن نزعم القول) أول من ينكصون على أعقابهم في مخالفة ما خطت أقلامهم. وكانت الحلية المصطنعة من عندهم لترويج بضاعتهم التي نظن أنها متناقضة أن اعتبروا تلك الاختلافات حالات خاصة (حالات شاذة) لا تنطبق عليها قواعدهم لخصوصية النص الديني من وجهة نظرهم. ويكأن لسان حالهم يردد مقولتهم الشهيرة بأن قواعدنا صحيحة على اطلاقها لكن لكل قاعدة شواذ. والغريب المريب في الأمر أن الشواذ هي النصوص الدينية التي لا تنطبق عليها قواعدهم. وإليك عزيزي االقارئ – إن شئت- المثال التالي الذي يوضح فكرتنا التي نحاول الترويج لها.

مثال: باب وَلَقَدْ

كانت كلمة "قد" – في ظننا- واحدة من هذه الأمثلة التي تبين مثل ذاك التنافر (أو لنقل التناقض) الظاهر بين الرأي اللغوي من جهة والموقف العقائدي من جهة أخرى، فأهل اللغة ومنظروها قد أفهمونا – حسب قواعدهم المفتراة- بأن كلمة "قد" – على سبيل المثال- تفيد التوكيد إذا دخلت على الفعل الماضي بينما تفيد التشكيك إذا دخلت على الفعل المضارع (فهذا على الأقل ما نشأت عليه أنا من فهم للمفردة منذ الصف السابع ج من معلم اللغة العربية حينئذ). فالفرق عندهم بين قولنا "قد زرته" مثلاً و قولنا "قد أزوره" هو أنّ فعل الزيارة قد تأكد في حالة الماضي وذلك لورود كلمة "***قد***" مصاحبة للفعل الماضي (زرته)، أما في حالة الفعل المضارع، ففعل الزيارة غير مؤكد وذلك بسبب ورود كلمة **قد** مصاحبة للفعل (أزوره)، والأمثلة وافرة في اللغة على مثل هذا الظن لمعنى "قد" في العربية.

السؤال المربك: كيف يمكن التوفيق بين هذا الفهم اللغوي (كما جاءنا من عند أهل اللغة) والموقف العقائدي الذي يمكن أن ينتج عنه في السياقات القرآنية التالية؟

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ١٤٤﴾ [البقرة: 144]

- ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ٣٣﴾ [الأنعام: 33]

- ﴿لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمۡ لِوَاذٗاۚ فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٦٣﴾ [النور: 63]
- ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قَدۡ يَعۡلَمُ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ وَيَوۡمَ يُرۡجَعُونَ إِلَيۡهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ٦٤﴾ [النور: 64]
- ﴿۞قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلۡمُعَوِّقِينَ مِنكُمۡ وَٱلۡقَآئِلِينَ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ هَلُمَّ إِلَيۡنَاۖ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلۡبَأۡسَ إِلَّا قَلِيلًا ١٨﴾ [الأحزاب: 18]

راقب – عزيزي القارئ- التلازم الحاصل بين "قد" والفعل المضارع في جميع السياقات القرآنية السابقة، فهل هذا يعني أن الرؤية غير مؤكدة في قوله تعالى "قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ"، أو أن العلم غير مؤكد في قوله تعالى "قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ"، أو في قوله "قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا"، أو في قوله "قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ"، أو في قوله تعالى "قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ"؟إن المخرج من هذا مثل "المأزق" يتمثل – في رأينا- بواحدة من سيناريوهين اثنين، وهما:

⇐ إما أن تكون تصوراتنا اللغوية خاطئة، فتحتاج حينئذ للتصحيح والمراجعة، كأن نراجع استنباطاتنا القواعدية بناء على مثل هذه النصوص القرآنية، ونتخلى عن تلك التصورات اللغوية السائدة، فنتخلى عن القول بأن "قد" – مثلاً- تفيد التشكيك مع الفعل المضارع، بدليل مثل هذه السياقات القرآنية التي ذكرناها سابقاً.

⇐ أو أن نلتزم بتلك الأفهام اللغوية، ونطبقها على النصوص القرآنية بغض النظر عن ما ستؤول إليه الأمور، وبغض النظر عن الاستنباطات العقائدية التي ستبنى على مثل هذه الأفهام، كأن نلتزم بأن "قد" – مثلاً- تفيد التشكيك إذا التصقت بالفعل المضارع، وعندها يجب أن تكون لدينا الجرأة الكافية في أن نقول أن فعل الرؤيا في قوله تعالى "قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ" غير يقيني، أو أن علم الله غير مؤكد في قوله تعالى "قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ" أو في قوله "قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا" أو في قوله "قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ" أو في قوله تعالى "قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ"

(لمعرفة موقفنا في هذه القضية المحورية ندعو القارئ إلى مراجعة سلسلة مقالاتنا تحت عنوان هل لعلم الله حدود؟)

لو راجعنا آراء أهل العقائد في فهم مثل هذه السياقات القرآنية، لوجدنا فيها العجب؛ فهم يصرون على قواعدهم اللغوية لكنهم في الوقت ذاته يروجون لفكرة غريبة وهي أن تلك القواعد (على صحتها) لا تنطبق على النص القرآني.

ولو دققنا في بعض الأمثلة الأخرى، لوجدنا بأن قواعد اللغة المزعومة تتعارض تماما من صريح اللفظ القرآني، ففي حين أن قواعدهم قد بنيت على افتراءات واضحة، جاء صريح اللفظ القرآني مخالفا لهذه الافتراءات. لكن الغريب المريب أنهم رفضوا قرونا طويلة من الزمن التخلي عن افتراءاتهم هذه. وسنقدم المثال التالي لتبيان وجهة نظرنا في هذا الموضوع.

مثال: باب تاء التأنيث

غالبا ما نشأنا في التعليم المدرسي على فكرة الإعراب للنص اللغوي. فكان من أول ما أفهمنا إياه أهل اللغة العربية بأن التاء في فعل مثل "قالت" تعرب على نحو تاء التأنيث الساكنة التي (حسب مفرداتهم) لا محل لها من الإعراب، أليس كذلك؟

لكن كانت المفاجأة التي كانت تقع على رأسي على الدوام كالصاعقة هو إعراب المفردة نفسها في مثل الآية الكريمة التالية:

- ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾﴾ [مريم: 42]

فكيف تراني أستطيع إعراب التاء في مفردة قالت في هذه الآية على نحو أنها تاء التأنيث الساكنة والآيات الكريمة التالية تبين لي – بما لا يدع مجالا للشك- بأن الملائكة ليسوا إناثا:

- ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ [الصافات: 149-150]
- ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [الإسراء: 40]
- ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الزخرف: 19]

فكيف بنا إذا سنعرب التاء في الفعل جملة "قالت الملائكة" على أنها تاء التأنيث الساكنة التي لا محل لها من الإعراب؟

السؤال: ما المخرج من هذا المأزق إذا؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن المخرج من هذه المعضلة بسيط جدًا يتمثل في أن نعيد النظر في تلك القواعد المزعومة، لأنها ببساطة تتعارض مع صريح اللفظ القرآني. فالملائكة ليسوا إناثا. لذا يستحيل أن تكون التاء في فعل جملة "قالت الملائكة: هي تاء التأنيث. فما هي إذا؟

رأينا المفترى: لو دققنا في النص القرآني جيدا، لوجب علينا التفريق بين التاء التي ترد في آيات مثل:

- ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾﴾ [آل عمران:35]

والتاء التي ترد في الآيات من مثل:

- ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [آل عمران: 42]

ففي حين أن التي قالت في الآية الأولى هي امرأت عمران، ولا ضير (نحن نرى) أن يكون الفعل الذي جاء مصاحبا لها مميزا بصيغة التأنيث (قَالَتِ)، جاء القول في الآية الثانية من الملائكة (قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ)، لذا يستحيل أن يأتي الفعل بصيغة التأنيث وذلك لأن الملائكة (الذين قالوا) ليسوا إناثا.

السؤال: كيف نميز بين الحالتين؟

رأينا المفترى: لو دققنا جيدًا في كثير من السياقات القرآنية، لوجدنا صيغة الفعل المنتهي بالتاء قد وردت في حالتين حسب اللسان العربي المبين، وهما:

1. أن يأتي مصاحبا للقائل المفرد المؤنث، مثل:

- ﴿إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٥﴾ [آل عمران: 35]
- ﴿قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ٧٢﴾ [هود: 72]
- ﴿فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ ٢٩﴾ [الذاريات: 29]
- ﴿قَالَتۡ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٤٧﴾ [آل عمران: 47]
- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٨﴾ [النمل: 18]

2. أن يأتي مصاحبا للقائل وهم مجموعة (بغض النظر عن جنسهم):

- ﴿وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٢﴾ [آل عمران: 42]
- ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ١١٣﴾ [البقرة: 113]
- ﴿وَإِذۡ قَالَتۡ أُمَّةٞ مِّنۡهُمۡ لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ قَالُواْ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ١٦٤﴾ [الأعراف: 164]
- ﴿۞ قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ١٠﴾ [إبراهيم: 10]
- ﴿۞ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٤﴾ [الحجرات: 14]

نتيجة مفتراة: التاء في نهاية الفعل الماضي (مثل قالت) هي على نوعين تاء للمفرد المؤنث وتاء للمجموعة. انتهى.

السؤال: هل نجد مثل هذه الاختلافات كثيرا في النص القرآني؟

جواب مفترى: نعم. هذه هي واحدة من مثل الاختلافات التي نجدها في النص القرآني: وانظر – عزيزي القارئ- في هذه الآية الكريمة جيدا:

- ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ٨٢﴾ [النساء: 82]

ألا تجد – عزيزي القارئ – أن فيها ما يدعو إلى طرح التساؤلات على الفور: فكيف نفهم أن هذا القرآن لو كان من عند غير الله لوجدنا فيه اختلافًا كثيرا؟ فهل يعني ذلك أن في القرآن اختلافًا قليلًا مادام أنه من عند الله؟

رأينا المفترى: لو دققنا بمنطوق الآية الكريمة، لوجدنا أن الآية تدل على احتمالين اثنين لا ثالث لهما مبنيان بالكليّة على مصدر هذا القرآن، ألا وهما:

- ⇐ لو أن هذا القرآن جاء من عند غير الله، لوجدنا فيه اختلافًا كثيرًا، أليس كذلك؟ فالاختلاف الكثير في القرآن كان يمكن أن نجده لو كان مصدر هذا القرآن غير إلهي، أليس كذلك؟
- ⇐ مادام أن هذا القرآن جاء من عند الله، فلن يكون فيه اختلافًا كثيرًا، أليس كذلك؟

لكن، دعنا الآن ندقق أكثر في الاحتمال الثاني وهو إن هذا القرآن لا يوجد فيه اختلافًا كثيرًا مادام أنه من عند الله، فهل يعني ذلك أنه يوجد في القرآن اختلافًا قليلًا مادام أنه من عند الله؟ وبكلمات أخرى نحن نسأل: ألا تدل الآية الكريمة على احتمالية وجود الاختلاف القليل في القرآن مادام أنه من عند الله؟

المنطق المفترى مرة أخرى على صيغة تساؤل: إذا كنا نحن البشر لا نستطيع أن ننتج قرآنا إلاّ ويكون مملوءً بالاختلاف الكثير، فهل ما أنتجه الإله نفسه كقرآن مفترى من عنده يمكن أن يوجد فيه الاختلاف القليل؟

السؤال المهم جدا: إذا كنا نحن البشر نخطئ كثيرا (عندما ننتج شيئا مكتوبا)، فهل أخطأ الإله (تعالى عن النقص) قليلًا (عندما أنتج هذا القرآن)؟ نحن نسأل فقط (لا تعصب عليّ).

جواب مفترى: لا تغضب عزيزي القارئ على الفور، ولا تجتزئ العبارة من سياقها لتطير بها إلى الناس لتحدثهم من فوق المنابر بما يقوله هذا الزنديق الكبير، وانتظر معنا (إن كنت تستطيع صبرًا) لترى كيف أن طرح مثل هذه التساؤلات (بالرغم من شدّة وقعها على الأسماع) لن تفضي إلى الكفر، وإنما للوصول للحقائق بإذن الله ومشيئته. فالسكوت على ما قد يظنه البعض شبهات لن يغير الحال. ولكن البحث المؤسس على العلم بالدليل وبالبرهان سيكشف الحقائق التي لا مراء فيها ولا جدال.

السؤال: كيف يمكن الخروج من هذا المأزق الذي وضعنا به أنفسنا عندما حاولنا تدبر هذه الآية الكريمة:

- ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ اخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: 82]

التساؤلات

- ⇐ ما هي الاختلافات التي يمكن أن نجدها لو أن هذا القرآن كان من عند غير الله؟
- ⇐ ما هي الاختلافات القليلة التي يمكن أن نجدها مادام أن هذا القرآن من عند الله؟
- ⇐ كيف يمكن أن نجد اختلافات قليلة بما هو من عند الله (كالقرآن)؟
- ⇐ هل يدعو ما نجده من تلك الاختلافات القليلة في القرآن إلى الريبة والتشكك بمصدر هذا الكتاب العظيم؟
- ⇐ الخ

رأينا المفترى: نحن نظن أن إشكالية الفهم لهذه الآية الكريمة، والمعضلة في الاستنباطات التي يمكن الخروج بها من منطوق الآية نفسها ربما تتمحور جميعها حول مفردة واحدة فيها، وهي مفردة" لَوَجَدُوا۟ " فكيف يكون ذلك؟

جواب مفترى متناقض: نحن ننفي جملة وتفصيلا أن يكون في هذا القرآن اختلافًا، كثيرًا كان أم قليلًا، ولكننا نثبت احتمالية أن نجد فيه اختلافا قليلًا - انتهى.

ألا ترى أنك قد جننت – يا رجل؟ ألا ترى أنك تهذي؟ كيف تنفي أن يكون في القرآن أي اختلاف (قليلا كان أم كثيرا) وتؤكد في الوقت ذاته أنه يمكن أن نجد فيه اختلافا قليلا؟ أليس هذا هو التناقض بعينه؟ يسأل صاحبنا.

جواب مفترى: كلا وألف كلا، لأن المشكلة ليست في القرآن ولكنها فينا نحن مَنْ نتدبر القرآن. لذا يجب أن نفرق بين ما هو كائن في القرآن فعلا، وما نجده نحن في القرآن. وشتان بين هذا وذاك.

السؤال: كيف ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نظن أنه لو جاءت الآية الكريمة على النحو التالي:

- ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لكان فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: 82]

لربما أقررنا على الفور بالوجود الفعلي لبعض الاختلافات القليلة في القرآن نفسه. ولكن لما كانت الآية على النحو التالي:

- ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: 82]

فإن المشكلة إذًا تكمن فينا نحن من سنجد في القرآن اختلافات قليلة، وليست المشكلة في القرآن ذاته، لأن القرآن يخلو تماما من الاختلافات بغض النظر عن حجمها.

السؤال: كيف إذا يمكن أن نفهم هذه الآية الكريمة؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن فهمنا لهذه الآية الكريمة هو على النحو التالي:

⇐ لو كان هذا القرآن من عند غير الله، لوجدنا نحن البشر فيه اختلافا كثيرا، أي لأصبح كل واحد منا (بغض النظر عن درجة علمه فيه، وبغض النظر عن قناعته فيه) يستطيع أن يجد الكثير من هذه الاختلافات في النص ذاته، لأن التناقضات أو لنقل الاختلافات (بين آياته) ستكون واضحة جدا لكثرتها. فلو أعطيتني كتابا من تأليف بشري لاستطعت أن أنقده (من النقد) بكل يسر وسهولة، لأن الهفوات والزلات ستكون كثيرة، ولأن كثيرا من مكوناته ستخالف بعضها بعضا مادام أن الكتاب صناعة بشرية. ولو أعطيت الكتاب ذاته لزميل آخر لي، لربما استطاع أن يضيف الكثير على ما وجدته أنا من تلك الاختلافات، وهكذا. وسيبقى هذا الكتاب محل نقد مهما تعاقبت الأجيال وبعد الزمان. والمتمرس في مناقشات الرسائل الجامعية يستطيع أن يتصور ذلك بكل يسر وسهولة.

⇐ بالمقابل، مادام أن هذا القرآن هو مفترى من عند الله، فلن يستطيع الكثيرون أن يجدوا فيه الاختلاف الكثير. ولكن بالرغم من ذلك، فقد يجد البعض (خاصة المتدبر لكتاب الله) بعض الاختلافات القليلة التي يظن أنها موجودة في النص نفسه. وهنا تكمن – في ظننا- المعضلة كلها، لأنه يجب عندها أن نطرح التساؤل التالي على الفور: هل هذه اختلافات حقيقية في النص أم أنها اختلافات تظن أنت (من عثرت عليها) أنها موجودة في النص؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن التفريق بين الأمرين يدعونا إلى إصدار التحذير التالي على الفور: إذا كنت أنا قد وجدت بعض الاختلاف في هذا القرآن، فهذا لا يعني على الإطلاق أن القرآن فيه اختلاف حقا، لأن هذا ما وجدته أنا، وقد لا يكون اختلافا متى ما استطاع شخص آخر أن يبيّنه لي. وهذا ما سنحاول تقديم الدليل علية مع الأمثلة الفعلية من القرآن على الفور بحول الله وتوفيقه.

قواعد اللغة العربية – طه حسن مثالا

كم تغنى الخطباء على المنابر بالتميّز التقعيدي (أو لنقل القواعدي) لكتاب الله؟ ألم تسطّر الكتب وتناقش الرسائل الجامعية التي تغنت بدقة كتاب الله من جوانب صياغته "اللغوية" (حسب مفرداتهم المغلوطة طبعا)؟ ألم يستهلك "إعراب" الكتاب الكريم جهد الكثيرين من أبناء الإسلام؟ ألم تستند أعظم مؤلفات الفكر الإسلامي "كدلائل الإعجاز" – مثلا- على "التميّز اللغوي" لكتاب الله؟ ألم يتحدى الكثيرون من أهل الإيمان سواهم (من أهل الإلحاد) أن يجدوا الاختلافات الخاصة بقواعد العربية (أهل اللسان الفصيح) في كتاب الله؟ ألم تكن حجتهم أصلا أن هذا القرآن قد نزل متحدّيا العرب (أهل الفصاحة) بلغتهم (حسب مفرداتهم مرة أخرى)؟

رأينا المفترى: هنا لا أجد مناصا إلا أن اطرح السؤال التالي: هل فعلا يخلو القرآن الكريم من تلك الاختلافات "اللغوية المزعومة"؟ هل يسير القرآن كلُه بقواعد العربية فلا يشذّ منه شيء عن تلك القواعد؟

جواب الخطباء من فوق منابرهم: نعم، لأن هذا القرآن الكريم متقن من حيث الصياغة القواعدية.

السؤال مرة أخرى: هل فعلا يخلو القرآن الكريم من الاختلافات القواعدية؟

جواب المعلمين في صفوفهم على مسامع طلبتهم: نعم، لأن هذا القرآن هو كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فكيف بك أن تتوقع أن تجد فيه الاختلافات؟ ربما يقول منطقهم!

السؤال مرة ثالثة: هل فعلا يخلو القرآن الكريم من الاختلافات القواعدية؟

جواب طه حسين: كلا. استطيع أن أشير إلى بعض الاختلافات القواعدية في القرآن (نحن نظن أنه قد قال ذلك).

السؤال المطروح على الجميع: ألم يشتهر عن عميد العربية (طه حسين) تلك المقولة المنسوبة إليه التي مفادها أن يعطوه قلما أحمر ليصحح لهم القرآن؟ ألم تقم الدنيا فوق رأس الرجل وما قعدت حتى الساعة عندما سمع البعض منهم مثل هذه المقولة عن الرجل (إن صحت الرواية طبعا)؟

المعضلة: بالرغم من محاولات تكذيبهم دعوى طه حسن تلك، لكن ألم يعقد الأزهر (ومن هم على شاكلته) المؤتمرات تلو المؤتمرات للرد على "الشبهات" (بمفرداتهم) التي أثارها طه حسين؟ ألم يصبح طه حسين مثالا للكفر والزندقة والإلحاد على منابر الخطباء المدافعين والمنافحين عن عقائد آبائهم وأجدادهم؟ لكن بالرغم من ارتفاع الصوت، هل توقفت المؤتمرات العلمية التي يشارك فيها أهل الدين جنبا إلى جنب مع أهل اللغة للنظر (ولإيجاد تخريج) فيما خالف من القرآن قواعد اللغة (التي صاغوها بأيديهم وألزموا كتاب الله بها)؟

المطلوب: بالرغم من هذه الجعجعة التي نظن أنها لم تنتج طحنا في يوم من الأيام بعد، ألا يبقى التساؤل قائما: هل نستطيع أن نجد في كتاب الله الاختلافات في القرآن الخاصة بقواعد العربية التي خطتها أقلام أهل اللغة؟ ألا نستطيع بكل يسر وسهولة أن نرصد عشرات الأمثلة على تلك الاختلافات؟

جواب: نعم نستطيع ذلك بكل يسر وسهولة. ولكن قبل المضي قدما في النقاش، وجب التنبيه في هذا السياق إلى أمرين أثنين

⇐ أن هذه الاختلافات ليست كثيرة بل هي قليلة، فالصبغة الغالبة على النص القرآني هي الانضباط "اللغوي" الدارج، ولكن هناك بعض الأمثلة (على قلتها) التي تخالف هذا الانضباط حسب افتراء أهل اللغة ومن تبعهم من أهل الدين.

⇐ لن يستطيع الكثيرون أن يجدوا (أو العثور على) هذه الاختلافات، لأن ذلك من الدقة بمكان ما يجعلها الشغل الشاغل للمتخصص العارف بخبايا الأمور بأدق تفاصيلها. ومن هنا ربما جاء تحذير أهل الدين المتكرر (نحن نظن) من إثارة مثل هذه القضايا بين الناس، لأن ذلك يقع (في ظنهم) في باب إثارة الشبهات. ولكني أخشى أن يكون ديدنهم في ذلك هو مسلك العلماء من أهل الكتاب كما تصوره الآية التالية أحسن تصوير:

- ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِۖ تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۖ وَعُلِّمۡتُم مَّا لَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنتُمۡ وَلَآ ءَابَآؤُكُمۡۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ ٩١﴾ [الأنعام: 91]

رأينا المفترى: لمّا كانت عقيدتنا نحن تتمثل في أنه لا يوجد في دين الله ما يمكن أن يثير شبهة، كانت منهجيتنا تلزمنا أن نضع كل شيء على طاولة النقاش، فلا نخفي أو نبدي ما نريد فقط، ومتى نريد فقط، بل يجب أن نبدي كل شيء، ونطرح حوله كل التساؤلات التي يمكن أن تخطر على قلب بشر قبل أن يطرحها غيرنا على مسامعنا، فيأخذنا على حين غرة، فلا نستطيع أن نرد بما يجب (كما يفعل أبطال البرامج الدينية من سادتنا العلماء أهل الدراية والرواية على الفضائيات المملوكة لأهل العهر والخلاعة). والحالة هذه، يجب (نحن نظن) أن نبدي للناس كل ما ظن أهل الدراية من قبلنا أن من الأفضل إخفاءه حتى لا يحدث بلبلة في قلوب العالمين حول الدين، ويكأن ظنهم أن إبداء هذه الأمور للعامة سيلحق الأذى بهم وبعقيدتهم. ولكن ظننا – بالمقابل- يتلخص بالعقيدة التي مفادها أن التفكر في كل هذه الاختلافات "أو لنقل المعضلات" التي أشكلت على الناس قرونا من الزمن بطريقة علمية واضحة السبيل والهدف سيؤدي بحول الله وتوفيقه إلى تجليتها وإزالة الشبهة عنها، عندما يبين صحيحها من سقيمها، فيمكث ما ينفع الناس ويذهب الزبد جفاء، لأن الله – لا محالة- متم نوره ولو كره المجرمون. فالله وحده نسأل أن يهدينا إلى نوره الذي ابى إلا أن يتمه – آمين.

أما بعد،

نحن نفتري القول بأنه لمّا لم يتمكن أهل الدراية من معرفة كيفية الخروج للناس بتفسيرات مرضية حول هذه القضايا "الشائكة"، آثروا السكوت عليها، لا بل ظهر الكثير منهم ليحذر العامة من الخوض فيها، أو حتى الاستماع لمن يخوض فيها. وإن أنت أردت الدليل على زعمنا هذا، فحاول - عزيزي القارئ - بعد

الانتهاء من القراءة أن تثير أنت بنفسك بعض هذه القضايا بين الناس، وسترى بأم عينك ردة الفعل عندهم على ذلك.

المثال الأول

دعنا – عزيزي القارئ- أن نرصد معك بعض الأمثلة على هذه "الاختلافات اللغوية" في كتاب الله، وغاية مقصدنا من هذا هو محاولة تبيان كيف أن هذه اختلافات (وإن وجدناها نحن في كتاب الله) ليست في الحقيقة اختلافات فعلية في كتاب الله. وإنما هي اختلافات بسبب إملاءات بشرية ظن الكثيرون أنها صيغت بالرجوع إلى كتاب الله. وهي في حقيقة الأمر صغيت بأيد بشرية (أخطأت المطلوب)، ثم أقحمت على كتاب الله اقحاما، وهو في حقيقة الأمر بريء منها براءة الذئب من دم يوسف (كما يقول المثل الدارج). ولكي يبين لك – عزيزي القارئ- وجاهة افترائنا هذا، دعنا بداية نعرض شيئا منها، ثم نحاول بعد ذلك النظر فيها على اختلاف أنواعها بمنظور ربما سيبدو جديدًا، قد يغيّر طريقة التفكر فيها. وبالتالي بيان أن هذه ليست اختلافات فعلية في كتاب الله، وإنما هي ما وجدناه نحن وظننا أنها كذلك.

لابد – بداية- من الإشارة إلى أن هذه "الاختلافات اللغوية" المزعومة التي وجدناها "نحن" في كتاب الله متنوعة، فهي اختلافات صرفية، ونحوية، وإملائية، وإنشائية، الخ. وانظر – إن شئت- فيما وضعنا تحته خطا في الآيات الكريمة التالية:

- ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأعراف: 81-82]
- ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [آل عمران: 147]
- ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةًۚ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنفال: 34-35]
- ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الجاثية: 25]
- ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة: 114]
- ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَاۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِيٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور: 31]

- ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ١٠ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١١﴾ [التحريم: 10-11]
- ﴿إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٥﴾ [آل عمران: 35]
- ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ١٢٨﴾ [النساء: 128]
- ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٨٩﴾ [البقرة: 89]
- ﴿فَمَنۡ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمۡ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمۡ ثُمَّ نَبۡتَهِلۡ فَنَجۡعَل لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰذِبِينَ ٦١﴾ [آل عمران: 61]
- ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٞ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٢١﴾ [المؤمنون: 21]
- ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ ٦٦﴾ [النحل: 66]
- ﴿۞هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ١٩﴾ [الحج: 19]
- ﴿۞وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ ٢١ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنۡهُمۡۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ خَصۡمَانِ بَغَىٰ بَعۡضُنَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَلَا تُشۡطِطۡ وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ٢٢﴾ [ص: 21-22]
- ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ٩٢﴾ [الأنبياء: 92]
- ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ٥٢﴾ [المؤمنون: 52]
- ﴿قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ٦٣﴾ [طه: 63]
- ﴿۞وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضۡلٗاۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيۡرَۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ ١٠﴾ [سبأ: 10]
- ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرٗا لَّهُمۖ بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١٨٠﴾ [آل عمران: 180]
- ﴿۞إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمُۢ ٢٠﴾ [المزمل: 20]

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٦٢﴾ [البقرة: 62]
- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ١٧﴾ [الحج: 17]
- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٦٩﴾ [المائدة: 69]
- ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ١٦٢﴾ [النساء: 162]
- ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْۖ وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۚ وَمَا لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ٧٤﴾ [التوبة: 74]
- ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ٥٩﴾ [التوبة: 59]
- ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٥٤﴾ [الأعراف: 54]
- ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ١٢﴾ [النحل: 12]
- ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٣٢﴾ [الأنفال: 32]
- ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ٦﴾ [سبأ: 6]
- ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ٣١﴾ [فاطر: 31]
- ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُمۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ١٨٠﴾ [آل عمران: 180]
- ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًاۖ قَالَ سَلَٰمٌۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ٦٩﴾ [هود: 69]
- ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ٢٤ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًاۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ٢٥﴾ [الذاريات: 24-25]
- ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ١٧ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ١٨ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ١٩ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ٢٠ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ٢١ وَحُورٌ عِينٌ ٢٢ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ٢٣﴾ [الواقعة: 17-23]

- ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٤٠﴾ [التوبة: 40]

تساؤلات: أليست هذه بعض الاختلافات التي نجدها في كتاب الله؟ لكن، إذا كنا قد وجدنا هذه الاختلافات في كتاب الله، فهل يعني ذلك أنها فعلًا اختلافات حقيقية في كتاب الله؟

جواب مفترى: كلا وألف كلا. فبالرغم أنها اختلافات وجدناها نحن في كتاب الله، إلا أنها ليست اختلافات حقيقية في كتاب الله؟

السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى: لأنها اختلافات بناء على "قواعد لغوية" صاغها البشر من عند أنفسهم، فالذين وضعوا ما سُمّي بـ "قواعد" العربية هم أناس اجتهدوها من عند أنفسهم بناء على مشاهداتهم الخاصة للغة نفسها، وما أن انتهوا من صياغة تلك القواعد حتى انطلقوا ليسقطوها على النص القرآني. ولمّا سلّم الغالبية الساحقة منا بصحة تلك "القواعد" المفتراة التي هي من صناعة البشر أنفسهم، خرج الكثيرون منا بالاستنباط الخاطئ الذي مفاده أن هناك "اختلافات" في كتاب الله، لأنها في ظنهم لا تتوافق مع قواعدهم التي صاغتها عقولهم البشرية. والحقيقة – في ظننا- أنها ليست أكثر من اختلافات إذا ما حاكمناها لما صنعته أيدينا نحن البشر من قواعد مفتراة على اللسان العربي نفسه (ناهيك عن أنها لا تأخذ مرجعيتها من كتاب الله). إن جلّ القول هو أن محاكمة النص القرآني (الذي هو صناعة إلهية) بناء على القواعد اللغوية (التي هي صناعة بشرية) هو ما أنتج تلك الاختلافات التي وجدناها في النص القرآني. لذا يجب أن يطرح السؤال على النحو التالي: لماذا نسمي هذه اختلافات؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: لأنها لا تتطابق مع ما سمي بقواعد اللغة.

السؤال الحتمي: ومن الذي وضع تلك القواعد التي حاكمنا النص القرآني بناء عليها؟ أليس نحن البشر من وضع تلك القواعد؟ فمن الذي زعم بأن "كان" (مثلا) ترفع الأول ويسمى اسمها وتنصب الثاني ويسمى خبرها؟ ألم يدقق من افترى ذلك النظر في الآيات الكريمة التالية؟

- ﴿إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ٨١ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوهُم مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ٨٢﴾ [الأعراف: 81-82]
- ﴿وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٤٧﴾ [آل عمران: 147]
- ﴿وَمَا لَهُمۡ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمۡ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوۡلِيَآءَهُۥٓۚ إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٤ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمۡ عِندَ ٱلۡبَيۡتِ إِلَّا مُكَآءٗ وَتَصۡدِيَةٗۚ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ٣٥﴾ [الأنفال: 34-35]

- ﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ ١١٤﴾ [التوبة: 114]

ومن الذي أفهمنا أن "إنّ" (على عكس كان) تنصب الأول ويسمى اسمها وترفع الثاني فيسمى خبرها؟ أليس هم البشر؟ ألم يكن الأجدر بأهل تلك القواعد المزعومة أن يمعنوا النظر بما جاء في كتاب الله في الآيات الكريمة التالية؟

- ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ٩٢﴾ [الأنبياء: 92]
- ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ٥٢﴾ [المؤمنون: 52]
- ﴿قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ٦٣﴾ [طه: 63]

ومن الذي ظن أن الـ "واو" تجعل ما يسبقها تابعا لما يلحقها في الحركة الإعرابية؟ ألم يكن الأجدر بهم أن يدققوا في الآيات الكريمة التالية أكثر قليلا؟

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢﴾ [البقرة: 62]
- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ١٧﴾ [الحج: 17]
- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٩﴾ [المائدة: 69]
- ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا ١٦٢﴾ [النساء: 162]
- ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ٧٤﴾ [التوبة: 74]
- ﴿وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٥﴾ [التوبة: 15]

ومن الذي صاغ قواعد المبتدأ والخبر؟ ألم يكن الأجدر به أن يدقق في كلام الله كما جاء في الآيات الكريمة التالية:

- ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٥٤﴾ [الأعراف:54]

- ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٢﴾ [النحل: 12]
- ﴿وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٢﴾ [الأنفال: 32]
- ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ٦﴾ [سبأ: 6]
- ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ ٣١﴾ [فاطر: 31]
- ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرٗا لَّهُمۖ بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١٨٠﴾ [آل عمران: 180]

ومن الذي فرّق بين إعراب المفردة والمحل الإعرابي للجملة؟ ألم يكن جديرا به أن يمعن التفكر في الاختلاف الظاهري في الآيات الكريمة التالية؟

- ﴿وَلَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ ٦٩﴾ [هود: 69]
- ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٤ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ٢٥﴾ [الذاريات: 24-25]

ومن الذي ميّز بين المذكر والمؤنث بأدوات تذكير وتأنيث؟ فكيف له أن يخرجنا من المأزق الذي وجدنا به أنفسنا في الآيات الكريمة التالية:

- ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٞ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٢١﴾ [المؤمنون: 21]
- ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ ٦٦﴾ [النحل: 66]

ومن الذي صاغ قواعد الضبط الإملائي الخاص بالتأنيث؟ فهل تستقيم قواعده مع ما جاء في الآيات الكريمة التالية؟

- ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١١ وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ ١٢﴾ [التحريم: 11-12]
- ﴿إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٥﴾ [آل عمران: 35]
- ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ١٢٨﴾ [النساء: 128]
- ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٨٩﴾ [البقرة: 89]

- ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾ [آل عمران: 61]

ومن الذي وضع قواعد الإفراد والتثنية والجمع؟ ألم يكن الأجدر به أن يتأنى قليلا، فينظر مليّا في الآيات الكريمة التالية قبل تسطير ما ظن أنها قواعد للغة القرآن الكريم؟ ألا يحق لنا إذا أن نعتقد جازمين أن تلك القواعد التي هي من صناعة أيدينا قد أوقعتنا فعلا في متاهات لاحقا صعب على الكثيرين منا الخروج منها سالمين؟

- ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾﴾ [الحج: 19]
- ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾﴾ [ص: 21-22]

ومن الذي...؟
ومن الذي...؟
الخ.

المخرج: عندما تثار هذه القضية على مسامع الناس، تجد أن الأغلبية الساحقة من المستمعين (غير المنصتين) يصلون فورا إلى الاستنتاج الخاطئ من تلقاء أنفسهم بأن في كلامنا هذا تشكيك بكتاب الله نفسه، وبكأن لسان حالهم يقول: أنت إذًا تظن أن هذا الكلام (أي ما في القرآن) ليس من عند الله؟! ولشدة وقع الأمر على أسماعهم، غالبا ما تُحرم الفرصة حتى في متابعة النقاش لتوضيح مراد الكلام قبل الخروج باستنباطات خاطئة لا تمت بصلة إلى مقصد القول الذي نحاول تبيانه. فما المخرج إذن؟

منطقنا المفترى: نحن ندعو كافة الناس (عالمهم ومتعلمهم) إلى النظر إلى الأمر بصورة معكوسة تماما: فبدل أن تظن أن هناك مشكلة في كتاب الله، فيجب أن تستنبط على الفور بأن المشكلة الحقيقية هي في تلك القواعد التي هي من صناعتنا نحن البشر. فنحن من كتب تلك "البضاعة المزجاة" المسماة بالقواعد، ثم ما لبث إلا يسيرا حتى أسقطها على كتاب الله، ولسان حاله يقول بأن هذه هي القواعد التي يسير عليها الكلام (كل الكلام) الذي جاء في هذا الكتاب الكريم. ومع مرور الزمن، وثق الناس بهذه القواعد حتى أنزلوها قدسية النص القرآني نفسه. فإن أنت حاولت أن تشكك في تلك القواعد، فكأنما (سان حالهم يقول بأنك قد شككت في كتاب الله ذاته.

رأينا المفترى: نحن نرى أن هذه خدعة كبيرة انطلت على عامة الأمة بأكملها لقرون من الزمن. لذا، لابد من التوقف فورا عن ذلك، وعكس الصورة تماما، لإعادة النظر في تلك "البضاعة المزجاة" بواحدة من طريقتين لا ثالث لهما:

⇐ إعادة النظر في تلك القواعد لتنقيتها من الشوائب، بما يتلاءم مع كل ما جاء في كتاب الله. فبدل أن نضع قواعد من عند أنفسنا ثم نسقطها على كتاب الله، فالأولى بنا (نحن نظن) أن نقرأ أولا كل ما

في كتاب الله، ثم نحاول صياغة تلك القواعد (إن استطعنا) بطريقة لا ينقضها الدليل والمثال من كتاب الله

⇐ ترك تلك القواعد بكليتها وتدبر كتاب الله بعيدا عنها

موقفنا المبدئي: نحن نظن أننا سنسلك الطريق الثاني، حتى وإن كلفنا ذلك التخلي عن الموروث بأكمله، فالتوقف عن الخطأ أفضل من التمادي فيه. فلا يجب أن نركب رؤوسنا إن كنا مخطئين، ولا يجوز أن نحلف برؤوس آبائنا إن لم نكن سالكين جادّة الصواب، لأن ذلك لا يكون إلا سلوك الإعرابي (ولا أعرف العلاقة بين الإعرابي في أصله والإعراب في اللغة) الذي فقد طريقة في وسط الصحراء، وبدل أن يرجع إلى الوراء ليتلمس معالم الطريق من جديد حلف برأس أبيه وتابع مسيره إلى المجهول.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا: نحن لا نظن أبدا أن الله هو من قال لنا بأن "كان وأخواتها" ترفع الأول وتنصب الثاني، ولا أظن أن الله قد أنبنا بأن "إن وأخواتها" تعمل العكس تماما، ولا أعتقد أن الله هو من ألزمنا بأن حرف الواو يجعل المعطوف تابعا للمعطوف عليه في الحركة الإعرابية، ولا ... ولا ...، الخ.

القضية الأخطر: لم يتوقف "التهريج" عند هذا الحد، بل ظهرت مؤلفات لأهل العلم اشتغلت بما يسمى بعلم "الإعراب" فأجازت ما سمّوه (ظلما لأنفسهم) الزيادات في كتاب الله، فبعض الأحرف الواردة في كتاب الله، هي عندهم زائدة، وبعضها لا محل لها من الإعراب، وتجرأ البعض منهم على تسميتها "بغريب القرآن، وهكذا. ولينظر المجادل في الأدب المتوافر حول هذا الموضوع عند أهل الاختصاص.

نتيجة مفتراة: نحن نفتري الظن بأن هذه "التخريفات" كانت صنيعة من ظنوا أنهم قد امتلكوا ناصية الحقيقة، فوضعوا "القواعد" لـ لغة آبائهم وأجدادهم، وأقحموا كلام الله في تلك "المهاترات" البشرية، وكانت الطامة على رؤوسنا أنهم أجبروا النص القرآني للخضوع لقواعدهم المفتراة من عند أنفسنا، فظهر في النص القرآني ما يخالف تلك القواعد، فكانت في ظن الكثيرين اختلافات في النص القرآني وهي في الحقيقة ليست أكثر من اختلافات وجدوها في النص القرآني والنص القرآني منها (نحن نفتري الظن) براء:

- ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: 82]

المعضلة: نحن نرى أن المعضلة قد بدأت عندما لم يجعلوا القرآن الكريم حكمًا على قواعدهم التي صاغتها عقولهم. فبدل أن يجعلوا القرآن الكريم حكما على تراثهم، جعلوا تراث آبائهم وأجدادهم حكمًا على كتاب الله – وشتان بين هذا وذاك. السؤال لماذا؟

رأينا: لأن القرآن كلام مفترى من عند الله (فهو مطلق الثبات والحقيقة) بينما "القواعد" المزعومة هي أقوال مفتراة من عند أنفسنا نحن البشر (تصيب أحيانا وتخطئ كثيرا).

السؤال: ما الفرق بين ما هو مفترى من عند الله (كالقرآن) وما هو مفترى من عند أنفسنا (كالقواعد)؟

دعنا ننظر في بعض الآيات كما جاءت في النص القرآني الذي هو من عند الله، ثم نحاول النظر فيها بناءً على ما يسمى بقواعد اللغة البشرية، لنرى الفجوة بين هذا وذاك، ثم نحاول تقديم افتراءنا حول القضية بعيدًا عن تلك القواعد التي صاغها بنو البشر بأيديهم.

باب الفعل والفاعل

دعنا نبدأ النقاش هنا بالآية الكريمة التالية :

- ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا ١٦٢﴾ [النساء: 162]

لنطرح على الفور التساؤل التالي: لماذا جاءت عبارة" وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ "منصوبة ومعطوفة على عبارات لَّكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ قبلها وعبارات وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللّهِ بعدها التي وردت جميعها مرفوعة؟

جواب مفترى: نحن نفتري الظن بأن الفرق بين الرفع والنصب يتمثل في وجود الإرادة الحرة للفرد أو عدم وجودها، فإذا ما كان الشخص يقوم بالعمل بمحض إرادة منه، لا يضطره إلى فعل ذلك أحد من الناس من حوله، فذاك يتطلب الرفع، وأما إذا كان الشخص يقوم بالفعل دون إرادة منه، مدفوعا لها من قبل غيره، فإن النصب هو الأولى. وهذا بالضبط ما نظن أنه يميز حركة الرفع والنصب كما ترد في هذه الآيات الكريمة التالية:

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢﴾ [البقرة: 62]
- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ١٧﴾ [الحج: 17]
- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٩﴾ [المائدة: 69]

فنحن نظن بأن الفرق بين "**وَالصَّابِؤُونَ**" من جهة و "**وَالصَّابِئِينَ**" من جهة أخرى كما الفرق بين "المؤمنون" والمؤمنين". وهو الفرق بين من آمن من تلقاء نفسه (كأبي بكر وعمر مثلا) مقابل من وجد نفسه مؤمنا من مثلي ومثلك نتيجة ما ألفى عليه آباءه. فأبو بكر وعمر هم مؤمنون لأنهم اختاروا الإيمان من تلقاء أنفسهم عندما وجدوا أنفسهم يعيشون في مجتمع غير مؤمن، بينما ربما أكون أنا وأنت مؤمنين لأننا وجدنا أنفسنا في مجتمع مؤمن، فنحن إذا لم نخيّر في هذه القضية على وجه التحديد حتى نتخذ قرارًا في ذلك من تلقاء أنفسنا .

وينطبق مثل هذا المنطق المفترى من عند أنفسنا على مفردات أخرى من مثل "كظيم" و "مكظوم"، ففي حين أن من كان كظيما (كيعقوب) فهو مسلوب الإرادة والتصرف :

- ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ ٨٤﴾ [يوسف: 84]

بينما من كان مكظوما (كيونس) فهو من كان كذلك بمحض إرادة حرة منه :

- ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ۝٤٨﴾ [القلم: 48]

(للتفصيل انظر مقالتنا قصة يونس – الجزء الثامن)

وللتفصيل أكثر في هذا الموضوع، دعنا ندقق في الفرق اللغوي الظاهر بالرفع والنصب لمفردة (وَالصَّابِؤُونَ وَالصَّابِئِين) في الآيات الكريمة نفسها. فبالرغم أن المفردة نفسها قد جاءت كـ اسم إنَّ المشددة (كما يرغب النحويون أن يميّزوها عن غيرها) في الحالتين، إلا أنها وردت منصوبة في الآيتين الكريمتين التاليتين:

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢﴾ [البقرة: 62]
- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝١٧﴾ [الحج: 17]

بينما جاءت مرفوعة في الآية الكريمة التالية :

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٩﴾ [المائدة: 69]

نحن نظن أن محاولة فهم هذا "الاختلاف" الظاهر الذي وجدناه في كتاب الله لا يمكن معالجته ضمن اطار النظريات اللغوية السائدة، خاصة العربية منها. ويتلخص موقفنا بالدعوة إلى طرح جملة القواعد التقليدية التي وضعها الآباء والأجداد جانبا عند التعرض للتراكيب القرآنية خاصة التي تظهر فيها الاختلافات كما في الآيات السابقة التي نحن بصدد محاولة فهمها، وتجلية الاختلاف بطريقة غير تقليدية إلى حد ما. فنحن نظن بأن تلك القواعد التقليدية هي - برأينا ربما المغلوط - عبء على النص القرآني. فالنص القرآني لا يحتكم إلى كتاب قواعد من صناعة البشر، ولا يجوز بأي حال من الأحوال (نحن نظن) إخضاع النص القرآني للقواعد التي هي من صناعة البشر، ومن ثم محاكمته بناء عليها. فالنص القرآني صناعة إلهية تخلو من العيب :

- ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝١﴾ [الكهف: 1]

بينما القواعد اللغوية ليست أكثر من صناعة بشرية ما أنزل الله بها من سلطان، تندرج في باب المجادلة :

- ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ۝٧١﴾ [الأعراف: 71]

ليكون السؤال المبدئي في النقاش هنا هو: لماذا جاء اسم إنَّ المشددة مرفوعا في هذه الحالة (وَالصَّابِؤُونَ) مقابل أنه قد جاء منصوبا في الحالات المتطابقة تركيبيا الأخرى (وَالصَّابِئِينَ)؟ أو بكلمات أخرى نحن نسأل: ما دلالة هذا الاختلاف (وَالصَّابِؤُونَ مقابل وَالصَّابِئِينَ) في هذه الآيات الكريمة؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن الفرق بين الرفع والنصب تكمن في حالة الموصوف، فهم تارة صابِؤُون وهم تارة أخرى صابِئِين. فنحن إذا نفتري القول مبدئيا بأن هناك الصَّابِؤُونَ وهناك الصَّابِئِينَ، لذا نحن نظن أن هناك نوعان من الذين صبأ- وا :

⇐ فهناك من صبأ اختيارا من تلقاء نفس
⇐ وهناك من صبأ إتباعا لما ألفى عليه آباءه

والمنطق نفسه ينطبق (نحن نظن) على الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى. فهناك من آمن بقرار شخصي، وهناك من آمن بقرار غير شخصي، وكذلك هناك من هاد (أي أصبح من الذين هادوا) بقرار شخصي وهناك من هاد بقرار غير شخصي، وهناك من تنصّر (أي أصبح من النصارى) بقرار شخصي، وهناك من تنصّر بقرار غير شخصي .

ولتوضيح الفكرة أكثر مرة أخرى، دعنا نطلب من القارئ الكريم أن يتخيل - مثلا- الفرق بين إيمان أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وغيرهم من صحابة الرسول الكريم مقابل إيماننا نحن من وجدنا أنفسنا مؤمنين دون قرار فعلّي من تلقاء أنفسنا. ليكون السؤال هو: ما الفرق مثلا بين إيمان أبي بكر من جهة وإيماني أنا من جهة أخرى؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن أبا بكر قد آمن بمحض اختيار تام من تلقاء نفسه، فهو من اختار طواعية ترك دين آباءه وأجداده وآثر أن يتّبع الرسول الذي بعثه الله فيهم، فهو إذًا من طرح دين آباءه وأجداده وراء ظهره، وهو من اتخذ بنفسه القرار الجريء باللحاق بهذا الدين الجديد. لكن – بالمقابل- لم يكن إيماني (أنا) بنفس الطريقة والمنهج. فما آمنت أنا (بذاك الرسول الذي بعث فينا) إلاّ لأني وجدت آبائي من هذه الأمة. وفي نهاية المطاف كنا جميعا (أبو بكر وأنا وأنت) من الذين آمنوا. لكن هل نحن متساوون في الإيمان؟! من يدري؟ !!

رأينا المفترى من عند أنفسنا 1: نحن نظن أن أبا بكر هو من الذين آمنوا، أي المؤمنون (حالة الرفع)

رأينا المفترى من عند أنفسنا 2: نحن نظن بأني أنا وأنت من الذين آمنوا، أي المؤمنين (حالة النصب) والمنطق نفسه (نحن نظن) ينطبق على إيمان الحواريين مقابل إيمان من جاء بعدهم من النصارى. فالحواريون هم من اتخذوا بأنفسهم طواعية القرار بنصرة الله وإتباع المسيح عيسى بن مريم :

- ﴿۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ۝٥٢﴾ [آل عمران: 52]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ۝١٤﴾ [الصف: 14]

لكن - بالمقابل - تنصّر من جاء بعدهم فقط لأنهم وجدوا آباءهم على تلك الأمة (النصرانية)، وهكذا .لتكون النتيجة التي نحاول جاهدين أن نصل إليها هي على النحو التالي: من اتخذ قراره بنفسه فهو يتمتع بحالة الفاعل المبادر بالفعل، أي الرفع: الصَّابِؤُونَ، وهو ما يسمى باللسان الأعجمي (the agent or the doer of the action)، أما من وجد نفسه تابعا من سبقه في قراره فهو يتمتع بحالة المفعول (أو الفاعل غير المبادر من تلقاء نفسه، أي المتلقي للفعل أو ما يسمى باللسان الأعجمي بـ the recipient of the action)، لذا فهو يحمل علامة النصب: الصَّابِئِينَ .

والآن دعنا نعود إلى الآيات الكريمة السابقة لنرى تداعيات هذا الفهم المفترى من عند أنفسنا وكيف يمكن أن يختلف الفهم لكل حالة من الحالات الإعرابية (كالرفع أو النصب)، ولنبدأ بحالة الرفع في الآية الكريمة التالية :

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٦٩﴾ [المائدة: 69]

افتراء خطير: نحن نفتري الظن بأن هذه الآية الكريمة تتحدث عن أولئك الفئة من الناس الذين اتخذوا قرارهم بأن يكونوا من "الذين آمنوا أو الذين هادوا أو النصارى أو الصابئون" بأنفسهم، فهم الذين التحقوا بالركب وما كانوا كذلك من ذي قبل. وبكلمات أكثر دقة نحن نفتري الظن أنهم هم الذين بادروا بفعل الإيمان بقرار شخصي منهم. فالذين آمنوا (في هذه الآية الكريمة) لم يكونوا مؤمنين أصلا، ثم ما لبثوا أن تحولوا إلى الإيمان بقرار من أنفسهم (كأبي بكر وعمر وعلي وغيرهم من أصحاب محمد)، وكذلك هي الحال – برأينا- للذين هادوا، وكذلك النصارى (كالحواريين)، وكذلك (نحن نفتري القول) كان الصابئون .
أما الآيات الكريمة التالية التي جاءت بحالة النصب :

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٦٢﴾ [البقرة: 62]
- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ١٧﴾ [الحج: 17]

فهي تتحدث – برأينا ربما مخطئين- عن الذين آمنوا لأنهم وجدوا آباءهم قد التحقوا بركب الإيمان (من مثلنا)، فما كان إيمانهم نتاج قرار خالص من أنفسهم، وكذلك هم – برأينا- الذين هادوا وكذلك **الصَّابِئِينَ**، وكذلك النصارى .

ولو حاولنا تدبّر القرآن الكريم، لوجدنا فيه عشرات (بل مئات) الأمثلة على مثل هذا الاختلاف الظاهري الذي يحمل في ثناياه – لا شك عندنا- معاني كثيرة ودلالات عظيمة وجب علينا الوقوف على بعضها إن لم نستطع الوقوف عليها جميعا. ولتوضيح الفكرة لأهميتها من الناحية التطبيقية، فإننا سنجلب المثال المثير التالي الذي (نحن نظن) يمكن أن ينطبق عليه المنطق ذاته، فهناك اختلاف ظاهر (يستحيل انكاره) في الآية الكريمة التالية :

- ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ١٦٢﴾ [النساء: 162]

فلو راقبنا العطف في هذه الآية الكريمة جيدا، لوجدنا على الفور أن حالة الرفع هي المسيطرة على المعطوف والمعطوف عليه باستثناء حالة واحدة وهي (**وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ**)، فبالرغم أن كل ما سبقها قد جاء مرفوعا (**لَّكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا**) وأن كل ما لحقها كان مرفوعا أيضا

(وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ)، بقيت هي بنفسها منصوبة متوسطة ذلك السياق القرآني (وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ).

السؤال: لماذا جاءت حالة (وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ) منصوبة في وسط الحالات المرفوعة كما هو واضح من صريح اللفظ القرآني؟

- ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا ١٦٢﴾ [النساء: 162]

رأينا المفترى: بداية، نحن نظن أن الرسوخ بالعلم لا يتم إلا بقرار من الشخص نفسه، وكذلك هو الأيمان، وكذلك إيتاء الزكاة. لكن إقامة الصلاة – على وجه التحديد- قد لا تكون بقرار محض من الشخص نفسه. فمن المفروض على الشخص أن يقيم الصلاة شاء ذلك أم أبى، فأنت لا تستطيع (كمسلم) أن لا تقيم الصلاة لأن الصلاة - كما نص عليها القرآن- كانت على المؤمنين كتابا موقوتا :

- ﴿فَإِذَا قَضَيۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمۡۚ فَإِذَا ٱطۡمَأۡنَنتُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوۡقُوتًا ١٠٣﴾ [النساء: 103]

السؤال: كيف كانت الصلاة على المؤمنين كتابا موقوتا؟ وما علاقة هذا بالحركة الإعرابية لمفردة الْمُقِيمِينَ في عبارة "وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ" التي نحاول أن نجد لها تخريجا (نظن أنه) منطقيا هنا؟
رأينا المفترى: نحن نؤمن أن كل شخص مطلوب منه إقامة الصلاة خمس مرات في اليوم والليلة، أليس كذلك؟ ولكن هناك أمر يدعو للحيرة في هذا الفعل وهو أن الشارع الكريم قد طلب منا إظهار فعل إقامة الصلاة على الملأ. فلو تأملنا هذه العبادة على وجه التحديد جيدا، لوجدنا على الفور أنها فعل تعبدي مطلوب منا أن نبديه على الملأ، ليرى ذلك كل من حولنا بأم أعينهم. فإبداء الصلاة (على وجه التحديد) خير من إخفائها على عكس جميع الأعمال التعبدية الأخرى. فصلاة الرجل في المسجد مثلا خير من صلاته في بيته، وصلاة الرجل في المسجد الجامع خير له من صلاته في مصلى حارته، وصلاة الرجل في المسجد الأقصى خير من صلاة الرجل في مسجد مدينته، وصلاة الرجل في المسجد النبوي خير له من صلاته في مساجد بلده كلها، وصلاة الرجل في المسجد الحرام خير له من صلاته في أي مكان آخر على وجه الأرض .
السؤال: لماذا؟

جواب مفترى: نحن نظن أن ذلك يكمن في كثرة الشهود وتنوعهم. فكلما كان الشهود على صلاتك أكثر، كلما كان أفضل، وكلما تنوع الشهود، كان الأجر أكبر. فأكبر تجمع على الأرض وأكبر تنوع في المجتمعين من المؤمنين يكون في البيت الحرام، لذا فإن الصلاة فيه لا تساويها صلاة في غيره. لذا نحن نتجرأ على تقديم الافتراء التالي: أن الأجر في الصلاة مرتبط بعدد وبنوعية الشاهدين عليها .
كما لا يفوتنا التنبيه هنا إلى أن هذا الظن (ربما) هو ما يجعل الصلاة – على وجه التحديد- كبيرة إلا على الخاشعين، كما جاء في الآية الكريمة التالية :

- ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ٤٥﴾ [البقرة: 45]

ليكون السؤال المطروح على الفور هو: لماذا تكون الصلاة كبيرة إلا على الخاشعين؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن الجواب يكمن في الآية الكريمة التالية :

- ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾ [النساء: 103]

السؤال مرة أخرى: لماذا الصلاة - على وجه التحديد- كبيرة إلا على الخاشعين؟ أليست هي دقائق معدودة؟

هل الصلاة أكبر من الزكاة أو من الصوم أو الحج، وهكذا؟

جواب مفترى: نعم، هي أكبر من ذلك كله، لأن الصلاة هي كتاب موقوت. انتهى .

السؤال: كيف يمكن فهم ذلك؟

رأينا المفترى: لما كان فعل الصلاة يجب أن يبدى للجميع، فإن من الأفضل أن يُصلي الإنسان أمام الناس، وكلما كان الجمع أكبر (كما زعمنا) كان الأجر أعظم، وذلك لأن الشهود أكثر .السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى: لأن الإنسان يستطيع أن يخدع كل من حوله بهذه الأعمال كمّا ونوعا. فأنت لا تستطيع أن تتحقق بأن الشخص (أي شخص) قد قام بإيتاء الزكاة بالكمية المترتبة عليه فعلا، فذاك فعل متروك لضمائر العباد أنفسهم. أما في حالة الصلاة فإنها (نحن نظن) بمثابة الإقامة الجبرية المفروضة على الإنسان. فأنت مطلوب منك أن تحضر بنفسك لتوقع على السجل خمس مرات في اليوم والليلة، لا بل مطلوب منك أن تسلّم كتابك بنفسك خمس مرات في اليوم والليلة (إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا). فالمحافظ على الصلاة مطلوب منه أداءها في أوقات محددة من اليوم والليلة لا يستطيع أن يترك شيئا منها .إن الصلاة هي العبادة الوحيدة التي جاء وصفها في كتاب الله على أنها كبيرة :

- ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة: 45]

وفهمنا ذلك على النحو التالي: جاء وصف الصلاة (من دون العبادات جميعا) على أنها كبيرة بالرغم أنها (ربما) لا تتطلب وقتا وجهدا لإنجازها، وذلك لأنها مرتبطة (نحن نفتري القول) بزمن محدد (كِتَابًا مَّوْقُوتًا). فالعمل (أي عمل) لا يعتبر – برأينا- كبيرا إلا إذا كان إنجازه يتطلب الالتزام بمواعيد محددة وثابتة. فلو أنت عملت في وظيفة محددة، أو لو أنه طلب منك إنجاز عمل محدد، فإن تلك الوظيفة وأن ذلك العمل لا يكون كبيرا بالنسبة لك إلاّ إذا كان يتطلب منك القيام به الحضور والمغادرة في أوقات ثابتة محددة. فمهما كان العمل شاقا، لا يكون كبيرا إذا كان الشخص يستطيع القيام به متى شاء، ولكنه يصبح كبيرا إذا تحدد القيام بذلك العمل في وقت محدد (كِتَابًا مَّوْقُوتًا).

مثال: تخيل –عزيزي القارئ -لا قدر الله - أنك محكوم عليك بالإقامة الجبرية في مركز أمني، ألا يتوجب عليك الحضور في أوقات محددة للتوقيع وإثبات وجودك؟ ألا يُطلب من المحكوم عليه بالإقامة الجبرية أن يثبت وجوده في المركز الأمني في الصباح والمساء مثلا؟ فكم من الوقت تحتاج لإثبات وجودك في المركز الأمني؟ ألا تستطيع القيام بذلك بوقت قصير (ربما ليس أكثر من بضعة دقائق للتوقيع ثم

الانصراف في الحال)؟ لكن، ألا يجد الإنسان (أي إنسان) مشقة في ذلك؟ ألا يكون هذا العمل كبيرا بالنسبة له بالرغم أنه لا يتطلب الوقت والجهد الكبيرين؟

جواب مفترى: نعم، هو كذلك، لأنك مضطر أن تتفرغ لهذا العمل بالرغم عن المعيقات جميعا. فمهما كان الظرف الذي تمر به، ومهما كان الشاغل الذي قد يحجزك، إلا أنه وجب عليك أن تترك كل الأعمال الأخرى للحضور للمركز الأمني لبضع دقائق معدودة من أجل إثبات وجودك. فتصبح الدنيا كلها (على اتساعها) ويكأنها سجن مفتوح بالنسبة لك .

السؤال: لماذا؟ وما علاقة هذا بالصلاة التي هي فعلا كبيرة (وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ)؟

جواب مفترى: لمّا كانت الصلاة مفروضة على المؤمنين في أوقات محددة، وجب عليه الالتزام بها في هذه الأوقات على وجه التحديد، فتصبح هذه العبادة على وجه التحديد كبيرة، لأنها تتطلب منك التفرغ لها في هذه الأوقات المحددة مهما كان الشاغل الذي قد يحجزك عنها حينئذ. فلو أنت كنت في وسط القيام بأي عمل، وحان وقت الصلاة، وجب عليك أن تترك كل شيء لتتفرغ للصلاة في وقتها .السؤال: لماذا؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن الصلاة (كعبادة) هي بمثابة الإقامة الجبرية المفروضة (من السماء) على الإنسان المؤمن في هذه الحياة الدنيا .

السؤال: ما الذي سيحصل لو أنك لم تُقِم الصلاة في وقتها؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نتخيل بأن الذي يحصل في هذه الحالة مشابه تماما لما قد يحصل لو أن الشخص المحكوم عليه بالإقامة الجبرية قد تخلف عن الحضور إلى المركز الأمني للتوقيع في الوقت المحدد له.

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نعلم بأنه لو تخلف الشخص المحكوم عليه بالإقامة الجبرية عن الحضور للمركز الأمني لمرة واحدة لإثبات وجوده في الوقت المحدد له، لربما عرّض نفسه للعقوبة، ولو تكرر غيابه أكثر من مرة، لدُقت أجهزة الإنذار التي تطالب بجلبه على الفور مهما كان السبب الذي منعه عن الحضور .

فبالرغم أن الفعل قد لا يتطلب أكثر من دقائق معدودة إلاّ أن الشخص يتضايق ويتثاقل من ذلك كثيرا، لأنها تصبح مقيّدة لحيرته الشخصية . وكذلك هي الصلاة، فهي كبيرة إلا على الخاشعين، لأنها كانت على المؤمنين كتابا موقوتا، أي محددة بوقت معين، لذا تصبح الصلاة (بهذا المفهوم المفترى من عند أنفسنا) عبئا ثقيلا، فكانت فعلا كبيرة إلا على الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون. فلا يستطيع الإنسان أن يترك كل ما بيده على الفور (مهما كان الفعل الذي يقوم به في وقت الصلاة) ويتفرغ كليا لأداء الصلاة في وقتها (خمس مرات في اليوم والليلة) إلا إذا كان من الخاشعين :

- ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ٤٥﴾ [البقرة: 45]

نتيجة مفتراة 1: كلما أُظهرت الصلاة أكثر (كالصلاة في المسجد مثلا)، كان الأجر (نحن نظن) أكبر.
نتيجة مفتراة 2: كلما أخفيت الأعمال الأخرى (كالصدقة والإيمان وغيرها) كان الأجر (نحن نظن) أكبر.

فإخفاء الصدقات خير من إبدائها بصريح اللفظ القرآني :

- ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾ [البقرة: 271]

لذا، تنقسم جميع الأعمال التي يقوم بها المؤمن إلى قسمين

⇐ قسم يستحسن فيه الإظهار وهي إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة (كما سنرى لاحقا بحول الله وتوفيق منه.

⇐ وقسم آخر يفضل فيه الإخفاء وهي جميع الأعمال التعبدية الأخرى

فلا يستطيع أحد أن يقرر أنك صائم أو أنك لست صائما (حتى في شهر رمضان) إلا أنت. فيكفي أن تشهد لنفسك بالصيام وذلك لأن الصيام مرتبط بالتقوى :

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ [البقرة: 183]

وهكذا هي الصدقات :

- ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾ [البقرة: 271]

فإخفاء الصدقات خير من إظهارها. وكذلك هو مقدار الزكاة، فلا أحد يستطيع أن يقرر مقدار الزكاة التي يتوجب عليك إخراجها من مالك إلاّ أنت بنفسك، وذلك لأنه لا أحد يعلم مقدار ما لديك من ثروة مستحق الزكاة فيها إلا أنت نفسك. لذا تستطيع أن تتحايل كما تشاء. وهكذا هو الإيمان، فقد تظهر لمن حولك من الإيمان ما تشاء، لكن الله وحده هو من يعرف حقيقة ما أظهرت وما أخفيت من إيمان :

- ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ [النساء: 25]
- ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾﴾ [البقرة: 270]

وكذلك هي كل الشعائر الأخرى، فعلمها عند الله وعند الشخص نفسه الذي يقوم بها :

- ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾﴾ [البقرة: 270]

أما الصلاة، فالأمر فيها مختلف بشكل جذري، فأنت لا تستطيع أن تتحايل في تأديتها لأن الشهود عليك من حولك كثيرون:

- ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا ١٦٢﴾ [النساء: 162]

فالإنسان مجبور على فعل إقامة الصلاة حتى وإن كان غير راغب فيها، لذا مطلوب منه (لا بل مفروض عليه) أن يصلي شاء أو أبى، وإن ظهر لمن حوله أنه تارك للصلاة (حتى وإن كان غير راغب بها) لزم على كل من حوله أن يسأله وأن يحاسبه عليها. وهذا لا ينطبق في حالة الأفعال التعبدية الأخرى التي من المفترض بالمؤمن أن يؤديها. فحتى فريضة الحج فهي ملزمة فقط لمن استطاع إلى ذلك سبيلا :

- ﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩٧﴾ [آل عمران: 97]

لكن يبقى السؤال قائما: من يملك أن يقرر أنك تستطيع الحج أو أنك لا تستطيعه؟ ألست أنت وحدك؟ لذا يستطيع من كان غير راغب في الحج أن يتعذر بعدم الاستطاعة، وحينها لا يكون لأحد الحق أن يتدخل بالأمر مادام أن الشخص نفسه قد قرر بنفسه عدم استطاعته الحج . لتكون النتيجة الخطيرة المفتراة من عند أنفسنا على النحو التالي :

⇐ الذي يرسخ بالعلم لا يمكن أن يرسخ فيه وهو غير راغب به (لَّكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ)، مرفوع

⇐ الذي يؤمن بما أنزل إلى محمد وما أنزل من قبله لا يمكن أن يؤمن وهو غير راغب في ذلك (وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ)، مرفوعة

⇐ الذي يؤتي الزكاة لا يمكن أن يؤتيها وهو غير راغب في ذلك (وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ)، مرفوعة

⇐ الذي يؤمن بالله واليوم الآخر لا يمكن أن يؤمن وهو غير راغب في ذلك (وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ)، مرفوعة

⇐ لكن، الذي يقيم الصلاة قد يقيمها وهو غير راغب فيها، مجبور عليها (وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ)، منصوبة والآن لاحظ – عزيزي القارئ- كيف اختلفت الحركة الإعرابية للمقيمين الصلاة – على وجه التحديد- في الآية الكريمة قيد الدراسة :

- ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا ١٦٢﴾ [النساء: 162]

نتيجة مفتراة 1: لمّا كانت الصلاة على المؤمنين كتابا موقوتا، وجب على كل مسلم أن يؤديها في وقتها شاء أم أبى، وللتأكد من ذلك فقد طلب الشارع الكريم منه أن يظهرها ليكون الناس من حوله شهداء عليه بأم أعينهم، لذا كان عليه أن يؤديها في وقتها حتى وإن كان غير راغب في ذلك. لذا قد يقوم بإقامة الصلاة وهو غير راغب فيها، ولكنه مجبر عليها رغما عنه.

نتيجة مفتراة 2: لمّا كانت الأعمال الأخرى مفضل فيها الإخفاء، فإن المراقب الفعلي للإنسان على القيام بها (بعد الله) هو الإنسان نفسه، لذا ليس لأحد الحق أن يراقبه فيها أو أن يشكك في قيام الشخص بها أو عدم قيامه بها. فالإنسان نفسه هو المسئول الوحيد عنها مادام أن اخفاءها (كالصدقات) أفضل من إظهارها، ومادام أن التعذر عن القيام بها (كالحج مثلا) منوط بالشخص نفسه .

نتيجة مفتراة 3: بالرغم أن الزكاة علم علني وجب اظهاره، إلا أن تحديد مقدارها يبقى رهينا بوجود الإرادة الحرة للفرد، فمخرج الزكاة يحدد كميتها بمحض إرادة منه، لا يستطيع أحد أن يضطره إلى فعل ذلك، فذاك فعل إذا يتطلب الرفع (وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ).

نتيجة مفتراة خطيرة جدا: نحن نظن أن معظم الأعمال (باستثناء الصلاة) مفضل فيها الإخفاء (كالصدقات أو قد يدخل فيها وجود الإرادة الحرة عند الشخص للقيام بها (كالزكاة)، أما الصلاة فمن الأفضل إظهارها، فتصبح ملزمة للجميع ليكون الجميع شهداء على بعضهم البعض في هذه الجزئية بالذات، لكن القيام بها لا يستلزم وجود الإرادة الحرة المطلقة من الشخص نفسه.

سؤال ربما يدعو للحيرة: إذا كانت عبارة "وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ" قد وردت في هذه الآية الكريمة بهذه الصيغة، فهل وردت العبارة نفسها في النص القرآني على مساحته بصيغة الرفع "المقيمون للصلاة" في مواطن أخرى؟

جواب: نحن لم نجدها؟

السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى: لأن إقامة الصلاة إجبارية، شاء من شاء وأبى من أبى. فذاك أمر غير مرتبط بإرادة الشخص الحرة، وذلك لأنه مطلوب منه إقامة الصلاة حتى وإن كان غير راغب في ذلك.

سؤال ربما يدعو للحيرة: إذا كانت عبارة "وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ" قد وردت في النص القرآني بصيغة الرفع، فهل نجدها في مواطن أخرى بصيغة النصب (المؤتين الزكاة)؟

جواب: نحن لم نجدها .

السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى: لأن إيتاء الزكاة (أو لنقل تحديد كميتها بالضبط) فعل إرادي يقوم به الشخص طواعية لا يمكن أن يتم بالإجبار. فالإنسان نفسه هو الفاعل المبادر فيها.

سؤال ربما يدعو إلى الحيرة: إذا كانت عبارة (الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ) قد وردت بصيغة الرفع، فهل نجدها في مواطن أخرى بصيغة النصب (الراسخين في العلم)؟

جواب: نحن لم نجدها .

السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى: لأن الرسوخ في العلم هو فعل إرادي يقوم به الشخص طواعية لا يمكن أن يتم بالإجبار.

سؤال ربنا يدعو إلى الحيرة: إذا كانت عبارة "وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ" قد وردت بصيغة الرفع، فهل نجدها في مواطن أخرى بصيغة النصب (المؤمنين بالله)؟

جواب: نحن لم نجدها

السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى: لأن الإيمان بالله (وليس الإيمان المطلق) هو فعل إرادي يقوم به الشخص طواعية لا يمكن أن يتم بالإجبار .(للتفصيل انظر سلسلة مقالاتنا تحت عنوان: لماذا نصلي خمس مرات في اليوم والليلة؟

باب الفعل

غالبا ما قسّم أهل اللغة الفعل إلى صيغتين رئيسيتين، وهما الفعل المضارع والفعل الماضي. وقد كان افتراؤهم (كما فهمناه) أن الفعل المضارع هو الفعل ذاته بغض النظر عن طبيعته، وكذلك هي الحال بالنسبة للفعل الماضي. فهم – برأينا- لا يميزون بين أنواع الفعل المضارع ولا بين أنواع الفعل الماضي. لكن **يبقى السؤال القائم هو**: هل الفعل المضارع هو فعل واحد في كل سياقاته؟ وهل الفعل الماضي هو فعل واحد في كل سياقاته؟

رأينا المفترى: لو تدبرنا طبيعة الفعل المضارع في جملة " يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ" التي ترد في الآية الكريمة:

- ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣﴾ [البقرة: 3]

لوجدناه يختلف عن الفعل الذي يرد في جملة "وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ" في الآية الكريمة ذاتها. وهنا نستميح أهل اللغة العذر لندقق في جزئية لغوية مهمة جداً تخص طبيعة ما يسمى بالفعل المضارع كما في "يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ". فعلى الرغم أن الفعلين جاءا على صيغة الفعل المضارع (المعروف عند أهل اللغة)، إلا أن المضارعة (نحن نرى) تختلف في كل واحد منهما، ولكن كيف ذلك؟

جواب مفترى: في حين أن الأيمان بالغيب هو فعل مستمر لا يجب أن ينقطع بتاتاً، فإن فعل إقامة الصلاة هو فعل غير مستمر لأنه يحدث على انقطاع من حين لآخر، فأنت لا يمكن أن تكون مؤمناً بالغيب في ساعة ثم تتوقف عن ذلك لمدة ساعة أو ساعتين لتعود لتؤمن بالغيب من جديد. ولكن في حالة إقامة الصلاة فأنت تقوم بفعل الصلاة في ساعة معينة ثم تتوقف بعضاً من الوقت وتعود إلى الصلاة مرة ثانية وثالثة ورابعة وخامسة في اليوم والليلة، فأنت تقيم الصلاة في الفجر وتتوقف عن الصلاة حتى الظهر وتعود إلى الصلاة في العصر والمغرب والعشاء، بينما في حالة الإيمان بالغيب، فأنت تؤمن بالغيب بلا انقطاع ولو للحظة واحدة (فحتى لو كنت نائماً فهذا لا يعني أنك لا تؤمن بالغيب ولكنك بلا شك لا تكون في حالة إقامة للصلاة). وهذا التمييز هو ما يسميه أهل اللغة الإنجليزية مثلاً بـ present continuous الذي يقابله simple present.

الفعل الماضي

والحالة كذلك بالنسبة للفعل الماضي، فعلينا أن نميز بين أنواع من الفعل الماضي. فليس كل فعل جاء على صيغة الماضي هو الفعل نفسه في كل الحالات والسياقات، وربما لا نجد أدل على ذلك مما جاء في الآية الكريمة التالية:

- ﴿دَرَجَٰتٖ مِّنۡهُ وَمَغۡفِرَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا ۝٩٦﴾ [النساء: 96]

فكيف نفهم صيغة الفعل الماضي في الجملة (وَكَانَ اللّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا)؟ فهل يعني أن الله لم يعد غفورا رحيما؟ هل الفعل الماضي في هذه الجملة تدل على أن الفعل قد حصل وانتهى في الزمن الماضي؟
رأينا المفترى: نحن ننفي جملة وتفصيلا أن يدل الفعل "كان" في (وَكَانَ اللّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا) على حصول وانتهاء الفعل في الزمن الماضي. فها هو زكريا يوجه الخطاب لربه قائلا:

- ﴿وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ۝٥﴾ [مريم: 5]

- ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨﴾ [مريم: 8]

في حين أن خطابه قد جاء في آية أخرى على النحو التالي:

- ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۝٤٠﴾ [آل عمران: 40]

فكيف نفهم هذا التناوب اللفظي في خطاب زكريا ربه؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن بأن الفعل "كان" لا يدل على الفعل الماضي الذي حصل وانتهى في الزمن الماضي، بل يعني – برأينا- أن الفعل قد بدأ في الزمن الماضي لكنه استمر حتى لحظة الكلام. فامرأة زكريا كانت عاقرا، وذلك لأن عقرها قد بدأ بالزمن الماضي لكن ذلك قد استمر حتى لحظة استجابة رب زكريا لدعاء زكريا. وفي هذه اللحظة بالذات ما عادت عاقرا. فالعقور قد انتهى في هذه اللحظة بعد أن استمر فترة من الزمن. (للتفصيل في هذه القضية انظر سلسلة مقالاتنا تحت عنوان: كيف تم خلق عيسى بن مريم على).

والمنطق نفسه ينطبق على الآية الكريمة (وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا)؛ فالغفران والرحمة الإلهية قد بدأت وهي - لا شك عندنا- مستمرة حتى لحظة محددة بعينها. فالغفران والرحمة الإلهية يجب أن تتوقف في لحظة معينة. ونحن نفتري الظن بأن هذه اللحظة هي يوم الحساب، وذلك لإيقاع العذاب بالكافرين. فيستحيل (نحن نظن ربما مخطئين) أن يستمر الغفران والرحمة مع إيقاع العذاب في يوم الحساب. لذا، نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن الغفران والرحمة الإلهية مستمرة منذ بدء الخلق حتى لحظة الحساب. وفي تلك اللحظة بالذات يصبح لزاما أن يتوقف ذلك الغفران وتلك الرحمة.

ولعلنا نجد ما يواز هذا الاستخدام في اللغات الأخرى مثل اللغة الإنجليزية. فتلك اللغة تميز بين جملتين من مثل

⇐ He was a student
⇐ He has been a student

ففي حين أن الجملة الأولى تدل على أن الشخص المذكور لم يعد طالبا بعد، فإن الجملة الثانية تدلّ أن الطالب قد بدأ رحلته الدراسية كطالب منذ زمن (في الماضي) لكنه لازال كذلك (حتى اللحظة). واللغة الإنجليزية تسند تركيب الفعل الأول إلى صيغة الفعل الماضي (Past Simple)، لكمها تسند تركيب الفعل الثاني إلى صيغة أخرى وهي (Perfect Present).

باب المبتدأ والخبر

غالبا ما يميز اللغويون العرب التقليديون بين نوعين من الجمل، وهما الجملة الأسمية والجملة الفعلية، وظنهم في ذلك مبني على ما ابتدئ به الكلام، فلسان حالهم يقول بأنه إذا بدأت الجملة بصيغة اسمية (أو ما يشبهها) فهي جملة اسمية، كأن نقول (علي مات). لكن إذا ابتدأت الجملة بصيغة فعليه (أو ما يشبهها)، فإنها تصبح جملة فعلية، كأن نقول (مات علي). والغريب المريب في ذلك أنهم لا يقدموا لنا تمييزا بين الجملتين من حيث المعنى والوظيفة. فالتفريق بين الجملتين – عندهم- تفريق شكلي (Form) يخلو من دلالة ذات معنى (Meaning). لذا، نحن نطالب أهل اللغة والكلام أن يميزوا لنا بين دلالات الجملتين الأسمية والفعلية، كما في قولنا:

علي مات

مات علي

وسؤالنا هنا هو: متى يصبح استخدام الجملة الاسمية واجبا، مقدما على استخدام الجملة الفعلية، والعكس بالعكس. فهل نجد بين صفحات الكتب التي حبرتها أقلام النحاة إجابة على مثل هذا السؤال؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأنه قلما وجدنا عند أهل اللغة والكلام ما يطفئ ظمأ الباحث عن المعلومة. ولا أريد أن أتجاوز الحدود بالنبش فيما خطت أقلام النحاة حول قضية كهذه، لكن سأكتفي بتقديم فهم بديل مفترى من عند نفسي قد يساعدنا في معرفة الغاية من التقديم والتأخير في هاتين الجملتين (وكل الجمل التي تصاغ على هذه الشاكلة).

الفهم البديل

لعل من أبجديات الفهم لهذه الجزئية هو طرح التساؤلات التالية:

- ⇐ ما هو الفعل؟
- ⇐ ما هو الاسم؟
- ⇐ ما هو الفاعل؟
- ⇐ ما هو المبتدأ؟
- ⇐ ما هو الخبر؟
- ⇐ الخ.

للإجابة على هذه التساؤلات الأولية، نجد لزاما تسطير الافتراء الخطير جدا جدا التالي: كل الكلام (مهما كانت الصيغة الشكلية له) هو في الأساس عبارة عن مبتدأ وخبر. فكلا الجملتين قيد البحث والدراسة (علي مات أو مات علي) يتكونان (نحن نفتري الظن) من مبتدأ وخبر. ولا نجد حاجة (في أي لسان) أن نفرق بين ما يسمى بالجملة الفعلية والجملة الاسمية من حيث المبدأ. ليكون السؤال المحوري الذي يجب أن يطرحه المحاور الآن هو: لماذا؟

رأينا المفترى: نحن نحن نظن أن الإجابة على هذا التساؤل تتطلب ابتداء فهم ماهية المبتدأ وماهية الخبر في الكلام. لذا، نجد لزاما التوقف هنا لفهم ماهية المبتدأ (واهميته) وماهية الخبر (وأهميته) في الكلام. فنطرح التساؤلين المحوريين التاليين:

- ⇐ ما هو المبتدأ؟
- ⇐ ما هو الخبر؟

بعيدا عمّا جادت به أقلام النحويين العرب حول هذه القضية، نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن المبتدأ لا يجب أن يعرّف بناء على شكل المفردة أو موقعها في السياق، وكذلك هو الحال بالنسبة للخبر. فالمبتدأ والخبر لا يرتبطان (نحن نظن ربما مخطئين) بشكل محدد ولا بموقع معين من الجملة. فأي جزئية في الكلام يمكن – نحن نرى- أن تكون مبتدأ ويمكن أن تكون خبرا بغض النظر عن شكلها (سواء جاءت على صيغة فعل أو اسم أو حتى شبه جملة) وبغض النظر عن موقعها في السياق، وذلك لأن للمبتدأ (نحن نرى

ربما مخطئين) وظيفة واحدة محددة بعينها وأن للخبر كذلك وظيفة واحدة محددة بعينها بغض النظر عن شكل المفردة ذاتها وبغض النظر عن موقعها في السياق الذي ترد فيه. وفي هذا رد على أهل اللغة الذين ظنوا بأن المبتدأ هو ما ابتدئ به الكلام وفي الوقت ذاته نجدهم يتحدثون عن مبتدأ مؤخر، وأن الخبر هو ما اكتمل به المعنى لما ابتدئ به الكلام، ونجدهم في الوقت ذاته يتحدثون عن خبر مقدم. فهم يسطرون الافتراء وفي الوقت ذاته يجدون بأنفسهم ما يناقض أساس افتراءهم. فهل لنا من خروج من هذا المزلق النظري؟

السؤال: ما هي وظيفة المبتدأ؟ وما هي وظيفة الخبر؟

رأينا المفترى: نحن نفتري بداية أن الكلام (كل كلام) في كل ألسنة أهل الأرض يتألف من جزئين: مبتدأ وخبر. والمبتدأ ليس ما ابتدئ به الكلام (كما قال سلفنا الصالح) وإنما هو المعلومة القديمة المألوفة للمتحدث والسامع. والخبر – بالمقابل – هو المعلومة الجديدة غير المألوفة للطرفين (المتحدث والسامع). انتهى.

الدليل

فهذا موسى يعد أهله أن يأتيهم بخبر من عند تلك النار التي آنسها بجانب الطور:

- ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٧﴾ [النمل: 7]
- ﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٢٩﴾ [القصص: 29]

فالمعلومة التي ينشدها موسى من عند النار لازالت معلومة غير مكشوفة للآن للمتحدث موسى وللسامع (أهله)، فهي لازالت (نحن نرى) في طور الخبر.

نتيجة مفتراة: الخبر إذا عبارة عن معلمة جديدة للمتحدث والسامع.

لكن ما يلفت الانتباه هو أنه ما أن تصبح المعلومة مألوفة للمتحدث لكنها لازالت غير معلومة للسامع، حتى تكون قد تطورت خطوة إلى الأمام، فتتطور من طور الخبر إلى طور النبأ حسب مفردات النص الحكيم (كما نفهمه طبعا). فالله هو من طلب من آدم أن ينبئ الملائكة بالأسماء التي علّمه إياها من ذي قبل:

- ﴿قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ۝٣٣﴾ [البقرة: 33]

فالمعلومة الآن هي نبأ – وليس خبر- لأن المتحدث (آدم) عنده علم بها من ذي قبل:

- ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ۝٣١﴾ [البقرة:31]

لكن السامعون (الملائكة) لم يكونوا على علم بعد بتلك الأسماء التي علمها عند آدم بعد.

نتيجة مفتراة: النبأ هو معلومة مألوفة (معروفة) للمتحدث لكنها غير مألوفة (معلومة) للسامع.

ولو دققنا في جميع السياقات القرآنية التي ترد فيها مفردة النبا ومشتقاتها، لوجدنا هذا الفهم المفترى من عند أنفسنا واضحا جليا. فالله هو من أوحى إلى محمد من أنباء الغيب، وذلك لأن الله هو عالم الغيب، فهي أنباء عنده وليست أخبار لأن علمها عنده، لكن محمد هو من يحتاج أن يعلمها الآن:

- ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [آل عمران: 44]
- ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [هود: 49]
- ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾﴾ [هود: 100]
- ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [هود:120]
- ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [يوسف: 102]
- ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾ [الكهف: 13]
- ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾﴾ [طه: 99]
- ﴿۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾﴾ [ص: 21]
- ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾﴾ [القمر: 4]
- ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾﴾ [التغابن: 5]
- ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ [النجم: 36]
- ﴿نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾﴾ [القصص: 3]

ومادام أن تلك الأنباء قد أصبحت في علم محمد، فهو إذا من كان قادرا أن يتلوها على غيره:

- ﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [المائدة: 27]
- ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [الأعراف: 175]
- ﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾﴾ [يونس: 71]

- ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ۝٦٩﴾ [الشعراء: 69]

وهذا الهدهد يأتي سليمان من سبأ بنبأ يقين:

- ﴿فَمَكَثَ غَيۡرَ بَعِيدٖ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ ۝٢٢﴾ [النمل: 22]

وذلك لأن علم ما يحصل في سبأ حينئذ كان عند المتحدث (الهدهد)، ولكنه ليس عند السامع (سليمان) بعد.

وهذا يوسف ينبئ صاحبيه السجن بما كان يأتيهما من طعام يرزقانه:

- ﴿قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ۝٣٧﴾ [يوسف: 37]

والرسول هو من نبأ واحدة من زوجاته بما كانت هي قد نبأت به من قبل:

- ﴿وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ۝٣﴾ [التحريم: 3]

(للتفصيل انظر سلسلة مقالتنا تحت عنوان: حديث الإفك)

ولا شك أن علم ما سيكون من أحداث في يوم القيامة هي كلها جميعا أنباء، وذلك لأن الله يعلمها ونحن لا نعلمها:

- ﴿قُلۡ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ۝٦٧﴾ [ص: 67]
- ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ ۝٨٨﴾ [ص: 88]
- ﴿فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَنۢبَآءُ يَوۡمَئِذٖ فَهُمۡ لَا يَتَسَآءَلُونَ ۝٦٦﴾ [القصص: 66]
- ﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣﴾ [القيامة: 13]
- ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٢﴾ [النبأ: 2]

والله هو من أرشدنا إلى حسن التصرف عندما يأتينا فاسق بنبإ:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ۝٦﴾ [الحجرات:6]

فمادام أن المعلومة لازالت في علم من جلب النبإ (الفاسق)، يتوجب على المستمعين له (الذين لا علم لهم بذاك) أن يتبينوا صدق ذلك النبإ خشية الوقوع في فعل نصبح بعده نادمين.

ولو حاولنا مقارنة ما جاء في الآيتين التاليتين:

- ﴿يَحۡسَبُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ لَمۡ يَذۡهَبُواْۖ وَإِن يَأۡتِ ٱلۡأَحۡزَابُ يَوَدُّواْ لَوۡ أَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلۡأَعۡرَابِ يَسۡـَٔلُونَ عَنۡ أَنۢبَآئِكُمۡۖ وَلَوۡ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلٗا ٢٠﴾ [الأحزاب: 20]
- ﴿يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡۚ قُل لَّا تَعۡتَذِرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٩٤﴾ [التوبة: 94]

لوجدنا على الفور تفاوتا لفظيا واضحا بينهما؛ ففي حين أن الأحزاب يسألون عن أنباء المسلمين (يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ)، كانت جميع المعلومات عن الأحزاب لازالت كلها في طور الأخبار عند المؤمنين (قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ). ليكون السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الصورة – بناء على فهمنا المفترى للفرق بين الخبر والنبأ- تصبح على النحو التالي: تكون المواجهة بين الأحزاب من جهة والمؤمنين من جهة أخرى، فيشغل الأحزاب أنفسهم بما يحصل حينئذ عند أعدائهم من المؤمنين، فتأتيهم بعض أنباء المؤمنين (ربما عن طريق بعض العملاء ناقلين الأنباء)، فيحاولوا التثبت من تلك الأنباء مادامت قد أصبحت في علم الناقل لها (يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ). لكن لم يكن المؤمنون في الطرف المقابل (نحن نتخيل) ليشغلوا أنفسهم بما يحصل عند الأحزاب حينئذ، فمن أخلاق المؤمنين أنهم لا يتجسسوا:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ١٢﴾ [الحجرات: 12]

فهم على ثقة بأن الله سيكفيهم، ومادام أن الرسول بين ظهرانيهم، فثقته بربه أن يكفيه شر أعدائه مطلقة، فلا يحتاج أن يتجسس عليهم ليطلع على بعض أخبارهم:

- ﴿فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٣٧﴾ [البقرة: 137]

لذا، بقي علم المؤمنين بما يحصل عند الأحزاب في طور الأخبار فقط. فيتولى الله (رب المؤمنين) مهمة أن ينبئ المؤمنين بأخبار الأحزاب.

السؤال: ما علاقة هذا كله بالقضية اللغوية التي أشغلنا أنفسنا فيها في هذا الجزء من النقاش، ألا وهي قضية المبتدأ والحبر في النحو اللغوي؟

رأينا المفترى: علينا أن نميّز حتى اللحظة بين ثلاثة أنواع من المعلومة، ألا وهي:

⇐ المبتدأ: هو المعلومة المعروفة للطرفين (المتحدث والسامع)
⇐ النبإ: هو المعلومة لمعروفة للمتحدث ولكنها غير معلومة للسامع
⇐ الخبر: هو المعلومة غير المعروفة للطرفين السامع والمتحدث.

إذا علينا أن نعيد صياغة علم الإعراب الذي تغنت به الأعراب قرونا من الزمن في مثل هذه الجزئية على النحو التالي: هناك نوعان من الجمل:

⇐ جمل تعرب على نحو مبتدأ ونبإ
⇐ جمل تعرب على نحو مبتدأ وخبر

فإذا كان الحوار بينك وبين شخص آخر، وأنت من تملك العلم بالمعلومة وهو لا يعرفها بعد كأن تقول له: مات علي

فالجملة يجب أن تعرب على نحو مبتدأ ونبأ

فالمدرس الذي يعطي محاضرة للطلبة، فهو يقدم لهم أنباء وليس أخبارا، وذلك لأن المدرس على علم بالمعلومة والطلبة – بالمقابل- ليس عندهم المعلومة بعد. فيبقى كل ما يصلهم في قاعة الدرس يقع في باب الأنباء

أما إذا جاءت المعلومة الطرفين، وكلاهما لا يعلم ما حصل، فيكون اعراب الجملة (مات علي) على نحو مبتدأ وخبر.

فمذيعة الأخبار – مثلا- هي ليست أكثر من ناقلة للمعلومة، لكمها نفسها لا تعلم منها شئيا، وهي في الوقت ذاته تنقل المعلومة للسامعين الذين لا يعلمون أيضا، فيكون ذلك من باب الأخبار وليس الأنباء.

ولو بحثنا عن مفردة "خبر" ومشتقاتها في القرآن الكريم على مساحة النص بأكمله، لما وجدنا أن الله يخبر ولكنه ينبئ، وذلك لاستحالة أن يعزب عن الله مثقال ذرة في السماء ولا في الأرض. فمادام أن الله بكل شيء عليم، يستحيل أن يقع عنده خبر (أي معلومة جديدة) بالنسبة له. فكل ما يحصل في السماء والأرض ينتهي علمه مباشرة عند العليم الخبير، فيصبح الأمر بالنسبة له ليس أكثر من نبأ.

وهنا سيطرح محاورنا التساؤل اللغوي التالي: كيف تريدنا أن نعرب المثالين التاليين:

- مات علي
- علي مات

على نحو أنهما ليسا أكثر من مبتدأ وخبر (أو بكلمات أدق مبتدأ ونبأ)؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن بأن المبتدأ هو المعلومة المشتركة، أي المعلومة من ذي قبل لدى السامع والمتحدث، بينما النبأ (بمفرداتنا) فهو المعلومة المتوافرة عند المتحدث لكن الجديدة بالنسبة للسامع. وعلى هذا يكون الإعراب على النحو التالي:

إذا كنت أنا المتكلم أعلم أن السامع يعلم بأن هناك حادثة موت، فيصبح الموت (سواء كان بصيغة فعلية أو اسمية) بالنسبة للطرفين ليس أكثر من مبتدأ (أي معلومة مشتركة بين الطرفين)، فيكون النبأ (أو لنقل الخبر تجاوزا) أن الذي لا يعلمه السامع هو من الذي مات، فأكون أنا قد وافيته بالنبأ (أو لنقل الخبر تجاوزا) بأن الموت قد أصاب عليا على وجه الخصوص، فأقول له:

مات علي

فيكون المفاجئ بالنسبة للسامع ليس حصول الموت (وذلك لأن هذه المعلومة موجودة عنده من ذي قبل)، ولكن المفاجئ له أن الذي أصابه الموت هو علي (وليس شخصا آخر). فلو حصل – مثلا- حادث طريق، وانتشر الخبر في وسائل الإعلام، وقد علم السامع بهذا الخبر كما علمته أنا، فيصبح فعل الموت ليس

أكثر من مبتدأ (أي معلومة مألوفة عند الطرفين)، لكن لم يكن السامع على دراية بمن مات في ذلك الحادث، وكنت أنا من نقلت له هذا النبأ، فتكون الجملة على نحو مبتدأ (الموت أو مشتقاته) ونبأ (علي).

لكن لو كان الأمر على نحو مغاير، كأن يكون السامع مثلا يعلم أن عليا مريض جدا في المستشفى (كما أعلم أنا المتحدث بذلك)، فيصبح علي بالنسبة لي (كمتحدث) وله (كسامع) مبتدأ، لأن كلانا نعلم أن عليا مريض، لكن الذي قد لا يعلمه السامع حتى اللحظة هو أن علي قد وصل به الحال من مرضه هذا إلى درجة الموت. وبالفعل مات علي، وعلمت أنا هذا الخبر، فأصبح بالنسبة لي نبأ، فقمت أنا بنقل هذا النبأ للسماع، فعليّ إذا أن أنقله على النحو التالي:

علي مات (وليس مات علي)

وذلك لأن عليا هو المعلومة المشتركة بيننا، لكن ما قد يتفاجأ به المستمع (كمعلومة جديدة) هو الموت الذي أصاب عليا، أي أن "علي" قد وصل به الحال إلى درجة الموت.

فالفرق بين الجملتين:

- مات علي
- علي مات

هو فرق في موضوع الكلام، ففي حين أن موضوع الكلام في الجملة الأول هو الموت (المبتدأ)، كان الكلام منصبا في الجملة الثانية على علي، فأصبح علي موضوع الكلام (المبتدأ)، وذلك لأن موضوع الكلام (أو ما يسمى بالمفردات الأجنبية theme or Topic) هو المعلومة المشتركة بين الطرفين، أي المبتدأ. ويكون النبأ أو الخبر هو المعلومة الجديدة التي أضيفت للتو على هذا المبتدأ حتى اكتمل الحديث.

نتيجة مفتراة: كل كلام يجب أن يكون عبارة عن جزئين: مبتدأ (المعلومة المشتركة) والنبأ أو الخبر (المعلومة الجديدة). ليكون السؤال الآن هو: لماذا؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن التخاطب بين البشر يجب أن يكون دائما على هذا الأساس: تقديم مبتدأ (معلومة قديمة مشتركة بين المتحدث والسامع) يتبعه نبأ أو خبر (معلومة قديمة فقط للمتحدث وجديدة على أذن السامع)، وذلك للسببين:

⇐ **أولا**، تخيل عزيزي القارئ ما الذي قد يحدث لو أن الكلام بين البشر كان كله مبتدأ. ألا ترى بأن الكلام يصبح حينها مكررا مملا لا طائلة منه؟ تخيل عزيزي القارئ – إن شئت- نفسك في ذلك الحوار الذي يجريه المتقاعد العسكري أو المدني من وظيفته وهو يسرد بطولاته العظيمة في غابر الزمن، ما الذي يحصل عندما تسمعها للمرة الأولى؟ ألا تكون بعضها بالنسبة لك أنباء جديدة ربما تستحق أن تسمعها؟ لكن ماذا لو كرر الشخص نفسه القصص ذاتها في لقاء ثان أو ثالث أو رابع (كما يفعل كثير من المتقاعدين)؟ ألا يصبح ذلك الحوار مملا ربما لا تلقي له بالا كثيرا؟ لماذا؟

رأينا المفترى: لأن الكلام قد أصبح بعد المرة الأولى مألوفا معروفا، لا طائلة من تكراره مرات ومرات.

نتيجة مفتراة: لو كان الكلام كله على نحو مبتدأ (أي معلومة مألوفة للطرفين: المتحدث والسامع)، لأصبح مملاء، لا يقود الحوار إلى اتجاه جديد، فلا يشجع السامع على الانخراط به كما فعل في أول مرة سمعه من ذاك المتكلم.

⇐ **ثانيا**، والآن تخيل عزيزي القارئ – إن شئت- الصورة معكوسة تماما. ماذا لو كان كل الكلام على نحو أنباء أو أخبار (أي معلومة جدية)؟ ألا ترى أن الكلام يصبح حينها مبهما تماما، لا طائلة منه. فتخيل أنك قد دخلت فجأة إلى محاضرة فيزياء في درس جامعي، وأنك لا تعرف شيئا عن الفيزياء، ألا يكون كل الذي يذكره المتحدث بالنسبة لك معلومة جديدة (نبأ أو خبر)، لكن هل تستطيع أن تتابع شيئا من النقاش؟ السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى: لأن الكلام من أوله إلى آخره ليس أكثر من نبأ أو خبر، لا علم مسبق عندك به. فهل يا ترى تستفيد منه شيئا؟

نتيجة مفتراة: لو كان الكلام كله على نحو أنباء أو أخبار (أي معلومات جديدة للسامع)، لأصبح مبهما غامضا لا طائلة منه للسامع.

السؤال: ما الحل؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن على المعلم المقتدر الذي يعلم كيف يوصل المعلومة إلى طلبته أن يكون منتبها لهذه الجزئية، فهو يعلم ما عند طلبته من علم مسبق (مبتدأ) قدّمه لهم في الدروس السابقة، وهو يعلم ما يريد أن يضيف عندهم في هذا الدرس من معلومة جديدة (نبأ). فيبدأ درسه بالتمهيد لهذه المعلومة الجديدة (النبأ) بمراجعة المعلومة السابقة التي قدمها لطلبته في الدروس الماضية، وعندما يتأكد أن طلبته على دراية تامة بالمعلومة السابقة التي ابتدأ بها النقاش، ينتقل عندها إلى الخطوة التالية بتقديم ما لدية من جديد لهذا اليوم. وبهذه الحالة، لا يكون الدرس مملا ولا يكون مبهما في الوقت ذاته، وذلك لأن الحوار بينهما قد جرى على نحو التناوب بين المبتدأ (المعلومة القديم المألوفة) والنبأ (المعلومة الجديدة). والمعلم المقتدر (مثلي) هو من يستطيع أن يتعرف على ما عند طلبته من معلومات سابقة، وهو يعرف كذلك اللحظة التي يمكن استغلالها لتقديم كل ما هو جديد عنده لهذا اليوم. فيحرج الطلبة من قاعة الدرس على دراية كاملة بما حصل فيه، عارفين ما كان عندهم من ذي قبل وما زيد عليه اليوم من علم وفير. وبخلاف ذلك، يكون أحد السيناريوهين التاليين هو الخيار:

⇐ إما أن يخرج الطلبة مالين من حديث معلمهم الذي كرر المعلومات السابقة التي كانت متوافرة عندهم من ذي قبل، وبذلك يكون المعلم قد اضاع جهدهم ووقتهم لهذا اليوم، أو

⇐ أن يخرجوا حيرانين لا يحملون في جعبتهم ما أدلى به المدرس من أنباء (معلومات جديدة) إن هو لم يمهد لها كما يجب حتى تصلهم بأقل جهد ممكن وبأعلى فائدة محتملة.

وهذا المنطق (نحن نفتري الظن) ينطبق على كل الحوارات البشرية مهما صغرت أو كبرت. فلو أنت دخلت – مثلا- مجلسا ما، ووجدت الناس قد سبقوك في حديثهم عن قضية ما، ستجد نفسك في تلك

اللحظة غير ممسك بناصية الحوار فترة من الزمن، وذلك لأن الحوار السائد حين دخلت كان بالنسبة لك كله عبارة عن نبأ أو خبر (أي معلومة جديدة)، وحتى تستطيع اللحاق بالحوار، عليك أن تتابعه بعض الوقت أو أن يتبرع أحد الحاضرين السابقين (مشكورا) أن ينبئك عمّا جرى بين المتحدثين قبل حضورك. فهو بذلك يمهد لك الدخول بالحوار بأن يقدم لك المعلومة حتى تصبح كمبتدأ عندك (أي معلومة مألوفة) لتبني عليها بقية الحوار (الأنباء)، فتشترك معهم حينها فيه بكل يسر وسهولة.

باب المفرد والجمع

ولا تتوقف إشكالات أهل اللغة والنحو العربي عند هذه القضايا ربما غير الواضحة للعامة من الناس، بل تعدتها إلى ما هو دون ذلك من المفاهيم التي تنطلق أحيانا على ألسنة العامة من الناس، كقضية المفرد والجمع مثلا. فحتى العامة من الناس لا يجدون ضيرا في التفريق بين المفرد والجمع، لكن يبقى السؤال المطروح هو: أهل أفلح أهل اللغة والنحو في تفصيل هذه القضية بالشكل الذي يساعدنا على فهم التناوب اللفظي في كتاب الله في هذا الجانب على وجه التحديد؟

جوابنا: كلا وألف كلا.

وحتى نستطيع تبيان وجهة نظرنا في هذا الافتراء الذي هو لا شك من عند أنفسنا، دعنا نقدم التساؤلات التالية حول ما جاء في الآيات الكريمة التالية:

- ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة: 261]
- ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [يوسف:43-44]
- ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [يوسف: 46]

ألا تلاحظ – عزيزي القارئ- أن كلمة سنبلة تجمع على مفردتين: سنابل وسنبلات؟ ليكون السؤال هو: لماذا؟ وما الفرق بينهما؟

ولو دققنا في الآيات السابقة، لوجدنا بأن مفردة بقرة – مثلا- تجمع أيضا على لفظتين: بقر وبقرات:

- ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [البقرة: 70]
- ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [يوسف:43-44]
- ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [يوسف: 46]

لنعاود طرح التساؤلات ذاتها: لماذا؟ وما الفرق؟

ولو بحثنا في النص القرآني لوجدنا بأن مفردة شهر – مثلا- تجمع أيضا على لفظتين: أشهر وشهور:

- ﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٧﴾ [البقرة: 197]
- ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٣٦﴾ [التوبة: 36]

فتبرز التساؤلات نفسها: لماذا؟ وما الفرق؟

ولو دققنا في النص الديني، لوجدنا بأن مفردة جذع – مثلا- ترد في النص القرآني في الآية الكريمة التالية:

- ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ٢٣﴾ [مريم: 23]
- ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ٢٥﴾ [مريم: 25]

ونجد أنها تجمع على جذوع:

- ﴿قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ ٧١﴾ [طه: 71]

لكن بالمقابل- لا نجد في النص الديني جمعا لمفردة فرع التي ترد في الآية الكريمة التالية:

- ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٢٤ تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٢٥ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٖ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٖ ٢٦﴾ [إبراهيم: 24-26]

لنثير التساؤلات ذاتها: لماذا؟ وما الفائدة المرجوة من ذلك؟

وبالمقبل نجد مفردة الأغلال (وهي لا شك جمع) ترد في آيات كثيرة من كتاب الله:

- ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٥٧﴾ [الأعراف: 157]
- ﴿إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسۡحَبُونَ ٧١﴾ [غافر: 71]
- ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ فَهُم مُّقۡمَحُونَ ٨﴾ [يس: 8]

لكن لا نجد صيغة المفرد من كلمة أغلال قد وردت في كتاب الله.

والأغرب من ذلك كله أن مفردة امرأة مثلا ترد بصيغة المفرد:

- ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحًاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ١٢٨﴾ [النساء: 128]
- ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ١٠ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١١﴾ [التحريم:10-11]

وترد في صيغة المثنى كما في قوله تعالى:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٢٨٢﴾ [البقرة: 282]

لكنها لا ترد بصيغة الجمع (إن نحن نسلمنا بقواعد الأعراب المزعومة). فلماذا؟ وما الفائدة من ذلك؟

والملفت للانتباه هنا هو أن مفردة امرأة (صيغة المفرد) ترد أحيانا في النص الديني مرسومة بالتاء المفتوحة:

- ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ١٠ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١١﴾ [التحريم:10-11]

وترد تارة أخرى بالتاء المربوطة:

- ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحًاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ١٢٨﴾ [النساء: 128]

لتنهال التساؤلات عن الغاية والحكمة من ذلك؟ فهل نجد في مؤلفات النحويين وأهل الدين ما يبرر مثل هذه المشاهدات؟

السؤال: هل يمكن أن نجد فهما بسيطا يبين لنا هذه التناوبات اللفظية في كتاب الله؟

مفرد	**مثنى**	**جمع**
سنبلة		سنابل
		سنبلات
شهر		أشهر
		شهور
جذع		جذوع
فرع		________________؟
________________؟		أغلال
امرأة	امرأتان	________________؟
امرأت	امرأتان	________________؟

الفهم البديل

تعرضنا سابقا لبعض هذه القضايا مثل الفرق بين الفرع والجذع، وكذلك السبب في أن يكون لمفردة الجذع جمع على نحو جذوع، بينما لا نجد صيغة جمع لمفردة الفرع. ونحيل من أراد الاستزادة في ذلك إلى سلسلة مقالاتنا تحت عنوان كيف تم خلق عيسى بن مريم؟

وهنا سنناقش بقية القضايا كأمثلة عملية نحاول من خلالها برهنة افتراءاتنا التي سنسطرها بعد قليل. ولنبدأ بالمفردات التي تجمع على لفظتين من مثل سنابل وسنبلات، وبقرة وبقرات، وشهر وأشهر.

أما بعد،

لو دققنا في الآيات الكريمة التالية:

- ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة: 261]
- ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [يوسف:43-44]
- ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [يوسف: 46]

لوجدنا بأن مفردتي سنابل وسنبلات هما صيغتان اثنتان لجمع مفردة سنبلة. فمفردة السنبلة إما أن تجمع على لفظة سنابل كما في قوله تعالى:

- ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة: 261]

أو أن تجمع على لفظة سنبلات كما في الآيتين الكريمتين التاليتين:

- ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [يوسف:43-44]
- ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [يوسف: 46]

الأمر الذي يدفعنا للبحث عن الفرق بين اللفظتين، والغاية بعد ذلك من هذا التناوب اللفظي في النص القرآني. فنحن نظن جازمين بأن هذا التناوب اللفظي مقصود بذاته في النص القرآني، وأن هناك غاية وحكمة إلهية علينا البحث عنها ما استطعنا إلى ذلك سبيلا. فما الذي وجدناه؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن بأن اللسان المبين يبين لنا بأن من الطبيعي أن يعكس التناوب اللفظي حقائق علمية حول المفردة ذاته، سيكون لها تداعيات جمّة على فهمنا للنص الديني. فما الغاية – نحن نسأل- من وجود مفردة السنابل جنبا إلى جنب مع مفردة السنبلات في النص الديني بالرغم من اختلاف السياق الذي وردت فيها هذه الألفاظ؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن ندعو القارئ الكريم – إن شاء- إلى التمييز بين نوعين من الجمع، وهما جمع العدد وجمع النوع. انتهى.

السؤال: ما الفرق بين جمع العدد من جهة وجمع النوع من جهة أخرى؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن جمع العدد يكون بالكثرة (أي الكمية)، بينما جمع النوع يكون بالنوعية بغض النظر عن الكمية.

الدليل

لو دققنا في السياق القرآني الذي وردت فيه مفردة سنابل، لوجدنا على الفور أن الكثرة واضحة فيه:

- ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة: 261]

فالسنبلة الواحدة قد أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مئة حبة، فيصبح المحصول بمعادلة رياضية بسيطة هو أن الحبة الواحدة قد تضاعفت سبعمئة مرة (7 سنابل X 100 حبة = 700 حبة)، أليس كذلك؟

لكن لو دققنا في الآية أكثر، لوجدنا ما يلفت الانتباه على الفور وهو جواب السؤال التالي: ما نوع السبعمئة حبة التي أنبتتها تلك الحبة في السنابل السبعة؟ أليست من نفس النوع؟ ألا يتحدث النص على أنه لو أن حبة قمح أنبت سبع سنابل، ستكون المحصلة سبعمئة حبة قمح، أي من نوع الحبة التي أنبتت تلك السنابل ذاتها؟ فهل يمكن أن تنبت حبة قمح سبعمئة حبة من الشعير أو الذرة مثلا؟

نتيجة مفتراة: بالرغم من كثرة المحصول (وفرة الغلة) في هذا المثال إلا أن الناتج لا يكون إلا من النوع المزروع ذاته، فحبة القمح قد تنبت سبعمئة حبة من القمح، وحبة الشعير قد تنبت سبعمئة حبة شعير، وهكذا. لنصل بذلك إلى افتراء فحواه أن مفردة سنابل تدل على جمع الكثرة لكن شريطة أن يكون من نفس النوع.

لكن لو دققنا بالمقابل في السياقات القرآنية حيث ترد مفردة السنبلات:

- ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ ٤٣ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ٤٤﴾ [يوسف:43-44]
- ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٤٦﴾ [يوسف: 46]

لوجدنا على الفور بأن العدد محدد بذاته وهو سبع سنبلات لا أكثر، وكذلك سبع بقرات لا غير، أليس كذلك؟

فما الذي يميز هذا النوع من الجمع إذا؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن هذا الجمع هو جمع النوع وليس العدد. فالقحط الذي أصاب أرض مصر في زمن يوسف لم يكن محصورا بنوع واحد من السنابل وإنما بسبعة أنواع من السنابل، ولهذا (نحن نظن) جاءت صيغة الجمع على نخو سنبلات. وكذلك هو الحال بالنسبة للمحصول الحيواني، فما دام أن القحط قد أصاب جميع أنواع البقر، جاء اللفظ على نحو بقرات.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: يجب أن نبين للقارئ الكريم بأن كلامنا هذا ليس إعادة صياغة لما افترى النحويون من التفريق بين جمع الكثرة وجمع القلة. فهذا أبعد ما يكون عن مخيلتنا. فإشكالية ما قاله النحويون تكمن في تحديد سقف للكثرة أو القلة، فمتى يمكن أن نقول بأن هذا الجمع يدل على الكثرة، ومتى يمكن أن نقول بأنه يدل على القلة، فهذه مصطلحات مطاطة لا تفي بغرض البحث العلمي القابل للتدليل والبرهان. لكن – بالمقابل- نحن نرى بأن كل جمع هو بحد ذاته جمع كثرة سواء كان ثلاثة أو سبعمئة أو عشرة مليون. لكن علينا أن نميز بين أن يكون الجمع من نفس النوع كمفردة سنابل أو من أنواع متعددة كمفردة سنبلات.

و لطالما استوقفتنا الايتان التاليتان بتناوب اللفظ بينهما فيما يخص مفردتي (**بُطُونِهِ و بُطُونِهَا**)

- ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ ٦٦﴾ [النحل: 66]
- ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٞ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٢١﴾ [المؤمنون: 21]

ليكون السؤال الذي لا مفر منه هو: لماذا جاءت مرة بلفظ **بُطُونِهِ** ومرةً اخرى بلفظ جاءت في بطونها **بُطُونِهَا**؟

رأينا المفترى: نحن نظن أنه يمكن أن نستخدم المنطق ذاته الذي استخدمناه للتفريق بين مفردتي سنابل وسنبلات في التمييز بين لفظتي بطونه وبطونها

السؤال: وكيف ذلك؟

جواب مفترى: نحن نفتري الظن بأن مفردة بطون (كما هي مفردة سنابل) تدل على النوع الواحد بينما تدل مفردة بطونها (كما مفردة سنبلات) على التنوع، أي أكثر من نوع.

السؤال: كيف ذلك؟

رأينا المفترى: لو دققنا في الفرق بين الآيتين لوجدنا أن الآية الأولى جاء فيها لفظ بطونه وذلك لأن ذلك مرتبط بما يخرج من بين فرث ودم، انظر الآية جيدا:

- ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [النحل: 66]

وهذا يعني بمفرداتنا بأن كل اللبن بغض النظر عن نوعه يخرج من بين فرث ودم. فنحن نعتقد بأن هذه الآية تتحدث عن آلية انتاج اللبن (الحليب)، فهو الذي يخرج من بين فرث ودم، وهذه هي الآلية ذاتها عند كل الأنعام التي تسمى – بالمفردات الدارجة - بالحيوانات (المجتره).

أما في الآية الاخرى التي ترد في سورة المؤمنون فهي تبين – برأينا- أنواع اللبن (الحليب)، فكل فصيله من الأنعام كالأبقار - مثلا- لها لبنها (حليبها) الذي يختلف بلونه وطعمه وكميته ونوعه عن لبن (حليب) الفصائل الاخرى مثل الماعز او الضأن او الإبل، لذا جاءت بصيغة الجمع المؤنت:

- ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾﴾ [المؤمنون: 21]

تلخيص ما سبق: ربما نستطيع أن نستنتج مما سبق أن الأنعام كلها تصنع اللبن (الحليب) في بطونه بطريقه واحده، فكلها من بين فرث ودم، ولكن كل فصيله من فصائل الأنعام تخرج مما في بطونها لبن (حليب) مختلف الوانه بالطعم والكميه والمكونات عن الفصيله الأخرى ولقد استطاعت الدراسات الحديثة التوصل للإجابة على هذا السؤال المحير، حيث وجد الباحثون أن الفرث (محتويات الكرش) في تلك الحيوانات هو المصدر الأساسي لهذا البروتين الحيواني. فهذه الحيوانات هي من نوع الحيوانات المجترة، أي التي تتغذى على العشب أو الكلأ على عجل وبسرعة ملحوظة وتحتفظ به في كروشها ثم تعيد مضغه بعد ذلك بتأن واضح في عملية تسمى (الاجترار). والمكونات الأساسية لهذا العشب هي مادة (السليلوز)، وهذه المادة معقدة التركيب جداً، بحيث أن معدة تلك الحيوانات لا تملك الخمائر أو العصارات اللازمة لهضمها والاستفادة منها، إلا أن الباحثين توصلوا إلى أن الذي يقوم بعملية هضم السليلوز داخل الكرش هي جيوش من كائنات دقيقة غير منظورة من البكتيريا الأولية التي تملك الخمائر والعصارات اللازمة لهضم السليلوز وتحويله إلى سكريات كبيرة ثم تشطره بعد ذلك إلى ما هو أصغر فأصغر حتى تتحول إلى جزيئات بسيطة يمكن للحيوان امتصاصها والاستفادة منها، ولكي يسهل عمل هذه الكائنات الدقيقة يقوم الحيوان المجتر بطحن العشب لها في عملية الاجترار وتحويله إلى عجينة ذات ألياف صغيرة.

نتيجة مفتراة: نحن نظن أن علينا أن نميز بين أنواع من الجمع لمفردات مثل

⇐ سنابل سنبلات
⇐ شهر شهور أشهر
⇐ جذع جذوع
⇐ فرع
⇐ قوم
⇐ الخ

التذكير والتأنيث

تعرضنا في أكثر من مقالة سابقة لنا لقسط كبير من هذه الجزئية، ومع ذلك فنحن نرى الحاجة هنا ملحة لإعادة بعض الخطوط العريضة خاصة ذات الصلة بمعنى مفردة الناس التي تعرضنا لها سابقاً لنقارن ذلك بما يمكننا أن نخرج به من استنباطات جديدة حول مفردة الأناسي، ومن ثم إسقاط ذلك على المقارنة بين البشر من جهة والناس والأناسي من جهة والبشر من جهة أخرى.

أما بعد،
غالباً ما فرّقت لغات الأرض الألفاظ بناء الجنس، فيأتي الحديث مفرقا بين المذكر والمؤنث خاصة عندما ترد لفظة خاصة بالمذكر وأخرى مقابلة لها تشير إلى المؤنث كما في الآية الكريمة التالية:

- ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ۝٣٥﴾ [الأحزاب: 35]

لتخرج الصورة على الشكل التالي :

مؤنث	مذكر
وَالْمُسْلِمَاتِ	الْمُسْلِمِينَ
وَالْمُؤْمِنَاتِ	وَالْمُؤْمِنِينَ
وَالْقَانِتَاتِ	وَالْقَانِتِينَ
وَالصَّادِقَاتِ	وَالصَّادِقِينَ
وَالصَّابِرَاتِ	وَالصَّابِرِينَ
وَالْخَاشِعَاتِ	وَالْخَاشِعِينَ
وَالْمُتَصَدِّقَاتِ	وَالْمُتَصَدِّقِينَ
وَالْحَافِظَاتِ	وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ
وَالذَّاكِرَاتِ	وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا

وهنا نتوقف لنسأل: هل يظهر التفريق بين المذكر والمؤنث في اللغة (أي لغة) دائماً على هذا النحو من التقابل الثنائي بين لفظ المذكر ولفظ المؤنث؟

حقيقة لغوية: لا يمكن أن نجد في أي لغة في الدنيا هذا التقابل متوافر لكل مفردة من مفرداتها، فأنا لا أعرف ما مذكر كلمة "نملة" في العربية، ولا أعرف مذكر كلمة شجرة (هذا إن كانت كلمة شجرة أصلاً مؤنث)، ولا أعرف مذكر كلمة طاولة ولا مؤنث كلمة كرسي، وهكذا. ولتوضيح الفكرة التي نجهد أنفسنا للوصول إليها دعنا نطرح مثلاً السؤال التالي: ما مؤنث مفردة "الكافرين"؟ فهل لمفردة الكافرين – مثلاً- مفردة مقابلة لها تستخدم لتدل على المؤنث كما الحال بالنسبة للمفردات الواردة في الجدول السابق؟

مؤنث	مذكر
؟	كافرين

جواب: لو تفقدنا القرآن الكريم لما وجدنا أن مفردة الكافرين ينطبق عليها ما ينطبق على مفردة المؤمنين أو الصائمين أو القانتين أو الخاشعين كما ورد في الجدول الأول السابق. فليس هناك في كتاب الله مفردة مثل "الكافرات" كما الحال بالنسبة للمؤمنات والصائمات والمتصدقات وغيرها.

سؤال: فما مؤنث مفردة الكافرين (حسب النص القرآني)؟

رأينا: نحن نزعم الظن أن مؤنث مفردة الكافرين هي مفردة "الكوافر" كما جاء في الآية الكريمة التالية:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِۖ لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۚ وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ وَلۡيَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْۚ ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡۖ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ١٠﴾ [الممتحنة: 10]

لتصبح الصورة على النحو التالي:

مؤنث	مذكر
كوافر	كافرين

إن مثل هذه الحالات تدفعنا إلى التفكر ملياً بالألفاظ قبل إصدار الأحكام التي لا شك ستعاني من التشوهات متى كانت مبنية على أفهام غير سليمة يدعمها الدليل القاطع من كتاب الله. والمفردة التي نود أن نخوض فيها هنا من جانب التذكير والتأنيث هي مفردة الناس في محاولة منا لتفريقها عن مفردة الأناسي، فالمفردتان (الناس والأناسي) وردتا في الآيات الكريمة التي ذكرناها سابقاً ونعيدها هنا مرة أخرى للتركيز عليها من هذا المنظور:

- ﴿لِّنُحۡـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرٗا ٤٩﴾ [الفرقان: 49]
- ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ٥٠﴾ [الفرقان: 50]

وقد زعمنا القول أن مفردة الناس تخص الذكور فقط بينما مفردة الأناسي فتخص الذكور والإناث معاً، ولكن قبل المضي قدماً للخوض في جانب التذكير والتأنيث للمفردتين، دعنا نطرح سؤالاً آخر يخص المفردتين، والسؤال هو: ما مفرد كلمة أناسي وما مفرد كلمة الناس؟

جواب: قد لا نختلف كثيراً في أن مفردتي الناس والأناسي تدلان على الجمع، أليس كذلك؟ فما المفرد لكل واحدة من هذه الألفاظ؟

رأينا: نحن نعتقد أن كلمة "الإنسان" هي مفرد كلمة الناس، بينما تفرد كلمة الأناسي – نحن نظن- على "إنسيا" كما في الجدول التالي:

الجمع	المفرد
الناس	إنسان
الأناسي	إنسيا

الدليل

دعنا نقرأ الآيات الكريمة التالية التي تتحدث عن خلق الإنسان للتدليل على صحة زعمنا هذا:

- ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ٢٦﴾ [الحجر: 26]
- ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ١٢﴾ [المؤمنون: 12]
- ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ٨﴾ [السجدة: 8]
- ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ١٤﴾ [الرحمن: 14]

ونقارن ذلك بالآيات الكريمة التي تتحدث عن خلق الناس:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۢ بَهِيجٖ ٥﴾ [الحج: 5]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾ [الحجرات: 13]

إن الحقيقة الصارخة التي نجدها في كتاب الله في هذا الصدد تتمثل في أنه عندما يأتي الحديث عن الخلق من طين ترد مفردة الإنسان فقط، أما عندما يأتي الحديث عن الخلق من طين فمن نطفة فمن علقة (أي الخلق من ذكر وأنثى) فترد مفردة الإنسان ومفردة الناس، لماذا؟

خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ	خلق من طين ثم كن فيكون	الإنسان (1)
إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا	خلق من نطفة ثم من علقه	الإنسان (2)
يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ	خلقوا من طين ثم من نطفة ثم من علقة	الناس

افتراء من عند أنفسنا: نعم، إننا نظن أن القول أن الإنسان خلق من طين هي عودة على إنسان خلق من طين فكان بشراً كحالة أدم وحالة عيسى بن مريم (وهم البشر):

- ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٞ تَنتَشِرُونَ ٢٠﴾ [الروم: 20]

أما سلالة آدم من بعدة فقد بدأ خلقهم من طين، ولكن ذلك الخلق تحول ليصبح بعد ذلك من سلالة من ماء مهين (وهم الناس: ومفردها أيضاً إنسان). ويظهر هذا التحول جلياً في قوله تعالى:

- ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨﴾ [السجدة: 8]
- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣﴾ [المؤمنون: 12-13]

لا شك عندنا أن هذه الآيات الكريمة التي تتحدث بشكل جلي أن خلق الإنسان من طين تثير لدينا تساؤلات كبيرة بخصوص زوج آدم (أو ما يعرف الناس باسم حواء)، فلندقق بالآية الكريمة جيداً ثم لنطرح التساؤلات حول خلق حواء، زوج آدم:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ... ۝٥﴾ [الحج: 5]

تساؤلات: هل خلقت حواء فعلاً من تراب؟ وهل خلقت من نطفة فعلقة فمضغة؟

رأينا: لقد حاولنا في مقالات سابقة لنا أن نثبت زعمنا بأن حوراء (وجنس النساء كلهن) ليسوا من الناس أصلاً؟

الدليل

ربما لا يعرف الكثيرون أن مفردة الناس تدل أصلاً على المذكر، وتمت تعديتها لتشمل المذكر والمؤنث (أي الرجال والنساء) في كلامنا نحن أهل اللغة العربية، فأنت عندما تتحدث عن الناس في كلامك، فإنك – دون أدنى شك- تقصد الذكور والإناث معاً، والمتلقي عندما يسمع مفردة الناس يظن أن الحديث يشمل الذكور والإناث معاً، أليس كذلك؟ ولكن السؤال الذي لم نرى أن لا مناص من طرحه في أكثر من موقع لما له من تداعيات خطيرة على العقيدة هو: هل هذه التعدية صحيحة من منظور القرآن الكريم؟ هل مفردة الناس تشمل الذكور والإناث في النص القرآني؟

جواب: لقد افترينا القول في مقالات سابقة لنا أن مفردة الناس في النص القرآني لا تشمل الإناث إطلاقاً، وهي مفردة تخص البالغين المكلفين من الذكور فقط، فالنساء حسب النص القرآني – نحن نزعم الظن- ليسوا من الناس، ولكن أين الدليل على هذا الزعم؟

باب: سمعت بمكرهن

رأينا المفترى: إننا نظن أن السبب في ذلك هو تطيّرهم (كما ذكرنا أكثر من مرة) بلغة آباءهم وأجدادهم. وقد وصلت الجرأة ببعضهم أن يضع ما يسميه هو بالقواعد ثم ما يلبث أن يطبق تلك القواعد التي هي من صناعته وصناعة أهل العلم من أبناء جلدته على ما جاء في كتاب الله. والذي استوقفني هنا في محض حديثنا عن قصة يوسف هو ما جاء في مؤلفات بعض أهل الدراية (أهل اللسان الفصيح) عن الآية الكريمة التالية:

- ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ۝٣١﴾ [يوسف: 31]

فقال بعض أهل اللغة منهم، وتبعه في ذلك كثير من أهل الشريعة، أن الباء في مفردة (بِمَكْرِهِنَّ) هي زائدة. لأن المعنى يستقيم حسب ظنهم بدونها.

الله أكبر الله أكبر الله أكبر

الباء زائدة؟! وهل في كلام الله يا أهل اللغة ويا أهل الشريعة (نحن نصيح بأعلى صوتنا) ما يمكن أن يكون زائدا؟ أليس كلام الله هو الكلام المطلق الذي لا تشوّهه زيادة فيه ولا يعتريه نقص؟

وكم هناك من الأمثلة التي خرجتموها على تلك الشاكلة؟ ومن أراد الاستزادة من مثل تلك الأمثلة، فما عليه إلا أن يراجع صاحبنا العزيز الدكتور هيثم العزام الذي وقعت يداه مؤخرا على بحث منشور في إحدى المجلات العلمية المحكمة عن موضوع الزيادات في القرآن الكريم، عندها ربما سيتعرف على كمية المعلومات التي جاءت زائدة في كتاب الله!!! فالله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله!!!

موقفنا العقائدي: نحن لا نتزحزح عن موقفنا العقائدي بأن كتاب الله كتاب كامل لا تشوّهه زيادة فيه ولا يعتريه نقص، وأن من يقول بغير ذلك، فحسابنا وحسابه على ربنا وحده:

- ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾ [سبأ: 26]

(دعاء: اللهم ربنا افتح بيننا بالحق وأنت خير الفاتحين)

أما بعد،

السؤال: هل الباء زائدة في مفردة **بِمَكْرِهِنَّ** قوله تعالى:

- ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [يوسف: 31]

دعنا نبدأ النقاش هنا طارحين المشكلة من خلال التساؤل التالي: ما فائدة الباء في مفردة بِمَكْرِهِنَّ في هذه الآية الكريمة؟ وماذا لو جاءت تلك المفردة بدون تلك الباء؟ فهل كان النص سيختلف كثيرا؟ وهل كانت الرسالة التي ستصلنا من ربنا ستختلف كثيرا؟

رأينا المفترى: لو لم تكن تلك الباء موجودة في مفردة بمكرهن لأصبحت الرسالة التي يريد ربنا أن يوصلها لنا عن تلك القصة مختلفة تماما، فوجود تلك الباء في هذا السياق القرآني لا شك يفيد في فهمنا القصة الحقيقية كما حصلت فعلا على أرض الواقع، ولكن كيف ذلك؟

جواب: للإجابة على هذا التساؤل فلابد من التعرض لمعاني هذه الباء في هذا السياق القرآني، وعندها سنتعرض على حجم المعلومة التي كان يمكن أن نفقدها لو غابت تلك الباء عن النص.

⇐ **أولا**، نحن نفهم أن استخدام الباء في بداية المفردة تدل على وجود الواسطة، كما جاء في قوله تعالى:

- ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾ [البقرة: 195]
- ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ [التوبة: 14]

فالعذاب سيقع عليهم، ولكن الواسطة في تنفيذ ذلك العذاب هي أيديهم أنفسهم. لذا، نحن نفتري الظن أن هناك واسطة جاءت بالخبر لامرأة التعزيز عن مكر النساء. فامرأت العزيز لم تسمع من النساء مباشرة، ولكنها سمعت عن مكرهن من خلال واسطة نقلت لها خبر مكر النسوة في المدينة.

⇐ **ثانيا**، نحن نظن أن وجود الباء تدل على أن السماع لم يكن مباشرا، فما الفرق بين أن نقول:

سمعت مكرهن

مقابل:

سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ

فلو كانت امرأة العزيز قد سمعت مكر النساء، لكان سماعها للخبر قد جاء مباشرا، ولحصل ذلك مرة واحدة، ولكن لما كان سمعاها كان على نحو (بمكرهن) فهي إذن لم تسمع من النساء مباشرة، ولكنها سمعت بالخبر عن طريق الواسطة كما أسلفنا. فما كان سماعها للخبر مباشرة بنفسها.

⇐ **ثالثا**، لو كان سماع الخبر من قبل امرأة العزيز مباشر لسمعت الخبر كما قالته النساء بحرفيته، ولكن لما كان سماعها للخبر منقولا (وليس مباشر) يستحيل أن يكون الخبر قد وصلها بالضبط بالحرفية التي قالته النسوة. فالباء قد تفيد الجزئية كما في قوله تعالى:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ٦﴾ [المائدة: 6]

فبالرغم أننا مأمورون أن نغسل وجوهنا وأيدينا وأرجلنا (انظر حركة الفتح **وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ ... وَأَرْجُلَكُمْ**) كاملة إلا أننا مأمورون أن نمسح برؤوسنا (أي جزء منها) فقط.

⇐ **رابعا**، لما كان الخبر قد جاءها بطريقة غير مباشرة، وربما أصابه شيء من التحريف، يستحيل أن يكون صحيحا على إطلاقه، لأن نقل الأخبار غالبا ما يشوبه التحريف والتشويه بواسطة من ينقل الخبر، خاصة إذا كان الناقل أكثر من طرف. فأنت عندما تسمع بخبر أن رئيس الوزراء الأردني المبجل قد ألقى خطابا (ليعلن تخفيض أسعار السلع كعادتهم بالطبع)، ولا تسمع الخطاب نفسه، فإن الناقل للخبر غالبا يضفي صبغته الخاصة (وربما شيئا من آرائه الشخصية) على الخبر ذاته (كما أفعل الآن عندا حديثي عن السيد رئيس الوزراء الأفخم!)

⇐ **خامسا**، لمّا كان النقل يمكن أن تنقصة بعض الدقة (لخلوة من عنصر المباشرة)، فلا يستبعد أن يكون فيه شيء من التهويل والمبالغة، خاصة عندما يصل الأمر إلى الحديث عن أخبار علية القوم (كامرأة مثل امرأة العزيز)، لذا لابد أن المرأة قد أخذت تدابيرها الخاصة لتحقق مما يتناقله الناس عن أخبارها.

⇐ **سادسا**، عندما يأتي الخبر بطريقة غير مباشرة، فربما يتم تناقله في أكثر من مرة، فلو كانت امرأة العزيز قد سمعت مكرهن (أي مباشرة)، لربما فهمنا أن سماع الخبر قد حصل في مناسبة واحدة، فتكون النسوة بذلك قد دبّرن الأمر معا مرة واحدة، ولكانت هي قائمة حينئذ تسمع الخبر مباشرة في تلك اللحظة، ولكن لما كانت قد سمعت بمكرهن (أي ليس مباشرة)، فلربما فهمنا أن مكر تلك النسوة قد حصل على فترة من الزمن، وتم نقل تلك الأخبار تدريجيا لامرأت العزيز في أكثر من مرة، فهي كانت – كما نتخيل الأمر- تتابع (من خلال من يقوم بنقل الأخبار لها) مجريات مكر النسوة شيئا فشيئا (وسنرى بحول الله وتوفيقه تبعات هذا الظن على فهمنا القصة الكلية لاحقا).

⇐ **سابعا**، مادام أن النقل لم يكن مباشرا، وقد أخذ قسطا من الزمن، استطاعت امرأة العزيز – في ظننا- أن تأخذ وقتا كافيا لتدبير الخطة التي ستنفذها لتوقع تلك النسوة في شرك أفعالهن ضدها (وسنحاول تبيان ذلك لاحقا بحول الله وتوفيق منه).

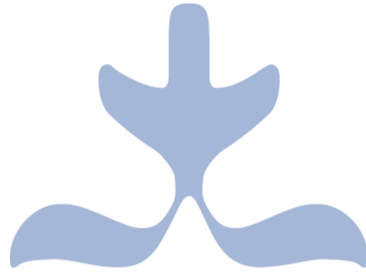
السؤال: هل الباء إذن زائدة يا أهل اللغة ويا أهل الشريعة؟

رأينا المفترى: نحن نطالب بنقل مهمة فهم كتاب الله من بين أيدي أهل اللسان (الذين ظنوا أنهم أهل الفصاحة والبلاغة) ليتم وضعه في أيدي أهل القلوب التي تعقل وتفقه (وإن لم تكن من أهل الفصاحة).

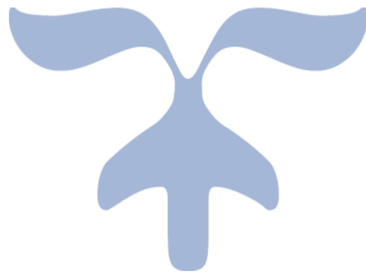
وللحديث بقية بإذن الله

فالله وحده أدعوه أن يعلمني ما لم أكن أعلم وأن يزدني علما وأن يهديني لأقرب من هذا رشدا. وأعوذ به وحده أن أكون ممن يفترون على الله الكذب أو ممن يقولون عليه ما ليس لهم بحق. وأسأله أن يهيء لي من أمري رشدا، وأعوذ به أن يكون أمري كأمر فرعون، إنه هو السميع البصير.

بقلم: د. رشيد الجراح
22 أيار 2020



معنى حرف الجر "على" ج1



معنى حرف الجر "على" ج1

تناقش الدراسة الحالية معنى حرف الجر "على" في العربية، لتخلص إلى نتيجة مفادها أن لحرف الجر "على" (كما لكل كلمات اللغة) معنى واحد حقيقي، وليس له أي معنى مجازي كما خلصت معظم الدراسات السابقة، والمعنى الذي توصلنا إليه لمعنى حرف الجر على هو "المراقبة الدقيقة الدائمة بهدف احكام السيطرة". وقد خلصنا إلى هذا الفهم بعد دراسة استخدامات حرف الجر "على" في العربية، وجاءت فكرة الدراسة هذه مدفوعة في الأساس من الإشكالات التي خلّفتها الأفهام السائدة لمعاني حرف الجر "على" في النصوص القرآنية، التي سنتعرض لها لاحقاً، وقد كان الإطار النظري الذي انطلقنا منه في استقصاء (استنباط) معنى حرف الجر "على" مستنداً إلى ما خلصنا إليه في مقالتنا السابقة تحت عنوان "جدلية الحقيقة والمجاز في القرآن الكريم" والتي خلصت بالزعم أن القرآن الكريم يخلو من المجاز، وكل ما فيه من لفظ يجب أن يؤخذ على الحقيقة. والافتراء الجديد الذي سنحاول الدفاع عنه هو أن حرف الجر (وكل ما هو على شاكلته) عبارة عن ألفاظ صغيرة الحجم اختزلت فيها معاني كثيرة جدا. ويمكن مشابهة ذلك برقاقة الكمبيوتر الصغيرة جدا التي تحتوي في داخلها كمية هائلة من المعلومة إذا ما استطعت أن تفك شيفرة التخزين التي استخدمت في ذلك.

توطئة: تفنيد الفكر السائد

لقد شكّلت مثل هذه القضية معضلة مستعصية أطاحت بالفرق والمذاهب الإسلامية، ربما نتيجة فهمهم المغلوط – في رأينا- لمعنى حرف الجر "على" كما يرد في السياقات القرآنية، ولعل القضية الأكثر تعقيداً كانت تلك التي خصت النقاش الذي دار بين العلماء منذ قرون خلت حول قضية الاستواء على العرش كما وردت في قوله تعالى:

- ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: 54]
- ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ [يونس: 3]
- ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾ [الرعد: 2]
- ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه: 5]
- ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾﴾ [الفرقان:59]
- ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾﴾ [السجدة: 4]

- ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الحديد: 4]

وقد انتهى السجال عند كثير من المسلمين (العامة منهم والخاصة) بمقولة ابن تيمية الشهيرة "الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة والإيمان به واجب"، فظن كثير من الناس أن الجدال قد حسم لصالح هذه الفئة، وأخذ الكثيرون يرفضون الدخول في مثل هذا الجدل ظانين أن النتيجة محسومة باستحالة معرفة كيفية الاستواء، ففي كلمات فقيهم جاء الاعتقاد جازماً بأن "الكيف مجهول"، ولكن الجزء الأخطر – في نظرنا- في تلك المقولة الشهيرة هو قوله بأن "السؤال عنه بدعة": لقد حرّم فقيههم السؤال أو حتى التفكر بهذا الأمر، وربما – في رأي متبعيه- يقذف كل من يخوض في هذا الجدل في نار جهنم وبئس المصير.

ولما كانت عقيدتنا تتلخص بأن ليس من حق بشر على وجه هذه المعمورة (كائن من كان) أن يحرّم علينا بحثنا عن الحقيقة، نجد لزاماً مخالفة ابن تيمية الرأي (مع التأكيد على احترامنا للرجل) لنثير هذا التساؤل من جديد ظانين أن بإمكاننا (بحول الله وتوفيقه) فتح آفاق جديدة في البحث، ربما تسعف في القادم من الأيام من ينفذ من خلالها إلى ما يأذن الله له به من علم.

لماذا؟

إننا نعتقد أن معظم السجال الذي دار في قضية الاستواء بين الطرفين قد فشل فشلاً ذريعاً – في رأينا- لسبب بسيط واحد ألا وهو انطلاقهم من افتراض خاطئ، فقد كان افتراضهم مبني على الفهم الخاطئ لمعنى حرف الجر "على" في العربية. وقد تلخص موقف الطرفين في إثبات أو نفي الوجود الفيزيائي للذات الإلهية فوق العرش، فطائفة منهم ترى ذلك لأن صريح اللفظ يقول أن الله قد استوى "على" العرش، وأخرى تنكر ذلك لموقف عقائدي يتلخص باستحالة أن يحتوى (يحتمل) العرش (وهو من مخلوقات الله) الذات الإلهية (وهو الخالق). ونحن نرى أن الطرفين كانا مخطئين لأنهم انطلقوا في الأساس من الفهم السائد بأن حرف الجر على يحمل في ثناياه معنى "الفوقية". لذا ظن المدافعون عن الرأي الأول بأن الذات الإلهية فوق العرش بمعنى الوجود الفيزيائي، وظن الطرف الثاني استحالة ذلك لأن المخلوق لا يمكن أن يحتوي الخالق.

موقفنا: نحن نظن أن الفهم الحقيقي لاستواء الذات الإلهية على العرش يستحيل أن يحصل مادام الفهم لمعنى حرف الجر "على" مغلوطاً، فلابد من تصحيح فهمنا لمعنى "على" أولاً، لنتمكن بعدها من معرفة كيفية الاستواء. وبعد الشرح سنصل إلى النتيجة التي مفادها أن الرحمن مستوياً على العرش ولكنه ليس موجود فيزيائيا فوقه.

دحض الآراء السابقة

دحض الرأي الأول

يمكن دحض رأي الفريق الأول الذي ظن بأن الذات الإلهية موجود فوق العرش وجوداً فيزيائياً من كتاب الله نفسه، قال تعالى:

- ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾﴾ [غافر: 7]
- ﴿وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴿١٧﴾﴾ [الحاقة: 17]

فالحقيقة القرآنية التي تصورها هذه الآيات الكريمة المتمثلة بأن الملائكة تحمل العرش يستحيل أن يستقيم معها فكرة وجود الرحمن فوق العرش وجوداً فيزيائيا، وإلاّ لكان لزاماً أن نفهم أن الملائكة التي تحمل العرش هي تحمل الذات الإلهية في الوقت نفسه، وعندها يصبح الرب وكأنه عاجز عن الحركة يحتاج إلى من يحمله، وهذا لا يستقيم مع ما تصوره الآية الكريمة التالية:

- ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأنعام: 158]
- ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾﴾ [البقرة210]
- ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾﴾ [الفجر: 23]

فالله إذاً لن يأتي محمولا في ذلك اليوم على العرش (لأن من يأتي محمول "سيجيء به" كما في حالة جهنم مثلاً (وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ)، وإنما سيأتي بنفسه (وَجَاءَ رَبُّكَ) تصحبه الملائكة "فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ" (وسنتعرض في مقالة أخرى لمعنى حرف الجر "في" لنحاول الخوض في سؤال مفاده: كيف سيأتي الله في ظلل من الغمام لنبين أن معنى حرف الجر "في" لا يحمل معنى الاحتواء كما يتصوره غالبية الناس، وسنحاول إثبات أن حرف الجر "في" يعنى حجب الرؤيا، وسنبين أننا عندما نقول أن فلانا في الدار ليس لتصوير أنه موجود داخلها وإنما لنبين أنه لا يمكن رؤيته من قبل الآخرين مادام أنه فيها)

وهناك دليل آخر من كتاب الله على استحالة الوجود الفيزيائي للذات الإلهية فوق العرش وهو ما جاء في قوله تعالى:

- ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الزمر:75]

فكيف إذاً بالملائكة ستحيط بالعرش والرحمن من فوقه؟! فالقول أن الإله موجود وجوداً فيزيائياً فوق العرش يترتب عليه الاعتقاد بأن الملائكة تحيط بالذات الإلهية وذلك لإحاطتهم بالعرش مصداقاً لقوله تعالى (وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ).

الفصل بين الذات الإلهية والعرش

إن الفهم الذي نحاول تسويقه هنا عند حديثنا عن الاستواء على العرش هي حتمية انفصال العرش عن صاحب العرش، فهذا أمر وارد بصريح اللفظ القرآني، فها هم من ينفذون أوامر سليمان يأتون له بعرش بلقيس فقط، وليس ببلقيس جالسة على عرشها:

- ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [النمل: 38]

لذا عندما قدمت هي على سليمان، جاءت بنفسها منفصلة عن عرشها الذي كان قد سبقها:

- ﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [النمل: 42]

ويستبين الفصل بين عرش الرحمن والذات الإلهية عندما تصور لنا الآية الكريمة التالية مكان وجود العرش، فيستحيل بذلك أن يفهم أن الذات الإلهية موجودة فوق العرش وجوداً فيزيائياً:

- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾ [هود: 7]

وتتضح صورة الفصل أكثر في مشهد الخلق الأول:

- ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [البقرة: 29]

وتتأكد الصورة في مشهد يوم القيامة:

- ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنبياء:104]
- ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر: 67]
- ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾﴾ [الحاقة: 17]
- ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الزمر:75]

فالمدقق في الآية الكريمة السابقة يجد أن ثمانية من الملائكة تحمل العرش في ذلك اليوم، وستكون بقية الملائكة حافين من حول العرش، وسيكون الرحمن (الملك) على أرجائها مطويات السموات بيمينه والأرض جميعاً قبضته.

النتيجة رقم (1): الفصل بين الذات الإلهية والعرش: لذا فالرحمن –حسب هذا الفهم- موجود خارج نطاق السموات والأرض، بينما العرش موجود حالياً ضمن نطاق السموات.

دحض الرأي الثاني:

لقد كان الشعور لدى الطرف الثاني هو استحالة وجود الذات الإلهية فوق العرش وجوداً مادياً، لسبب عقائدي يتمثل في استحالة أن يحتوي المخلوق (العرش) الخالق (الله)، وبالرغم من هذه الحجة المقنعة للوهلة الأولى إلا أن أصحاب هذا الرأي لم يقدّموا الدليل على ظنهم هذا من كتاب الله، فكيف بهم إذاً يرفضون الأيمان بوجود الذات الإلهية فوق العرش وهو من يقول عن نفسه أنه قد استوى على العرش بعد أن خلق السموات والأرض؟ فأين إذاً يكون الوجود الفيزيائي للذات الإلهية؟

لقد كان الفشل الحقيقي لأصحاب هذا الرأي يتمثل في عدم قدرتهم على الإجابة عن السؤال حول الوجود الفيزيائي للذات الإلهية، فغالباً ما تغنى أصحاب هذا الرأي بالاعتقاد اليقيني لديهم أن الله موجود في كل مكان. وقد حاولنا في مقالة سابقة لنا دحض هذا الرأي جملة وتفصيلا، وقدمنا الدليل على استحالة الوجود الفيزيائي للذات الإلهية في كل مكان. وكان لب النقاش يقتضي الفصل بين الوجود الإلهي بعلمه والوجود الفيزيائي للذات الإلهية، فكان رأينا يتمثل في أن الله موجود في كل مكان بعلمه، ولكنه غير موجود في كل مكان بذاته، وكانت قصة مواعدة الله نبيه موسى تشكل دليلاً – في نظرنا- على صحة زعمنا باستحالة الوجود الفيزيائي للذات الإلهية في كل مكان. ولا ضير أن نعيد هنا جزءاً من النقاش السابق لتوضيح الفقرة (ولكن القارئ مدعو للدخول في التفاصيل عند قراء مقالتنا تحت عنوان "أين حصلت مناداة الله نبيه موسى؟").

فالله يواعد نبيه موسى أن يلقاه في مكان ما، ويأتي موسى مسرعاً، فيبادره ربه بالسؤال التالي:

- ﴿۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ٨٣﴾ [طه: 83]

فيرد موسى على سؤال ربه بالقول:

- ﴿قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ٨٤﴾ [طه: 84]

وهنا نطرح سؤالنا الذي نظن أنه يلقي بظلال الشك على الاعتقاد السائد بالوجود الإلهي في كل مكان على النحو التالي: إذا كان الله – كما يظن الكثيرون- موجودا في كل مكان، فلم يضطر موسى أن يذهب إليه؟ ثم كيف بموسى يقول لله "عجلت إليك" إن كان الله فعلاً موجوداً في كل مكان؟ ثم لم لا يتم اللقاء في المكان الذي كان يتواجد به موسى بدل أن يجهد موسى نفسه أربعين لليلة سائرا على قدميه، ويترك قومه من وراءه ليفتنهم السامري؟ ألا يكفي موسى كل ذاك الترحال الذي أمضى قسطاً كبيرا من حياته فيه؟ (للتفصيل في هذا الموضوع انظر مقالتنا تحت عنوان أين حصلت مناداة الله نبيه موسى)

أما الدليل الثاني الذي نسوقه لتمرير رأينا في أن الله ليس موجوداً في كل مكان هو الحكمة من وجود الملائكة، إننا نعتقد أنه لو صح زعمهم بأن الله موجود في كل مكان بذاته لانتفت الحكمة من وجود الملائكة أصلاً، فما فائدة الملائكة إن كان الله فعلاً موجودا في كل مكان؟ ما الذي ستفعله الملائكة؟ (للتفصيل في هذه القضية انظر سلسلة مقالتنا تحت عنوان هل لعلم الله حدود؟)

النتيجة رقم (2): الله ليس موجود بذاته في كل مكان

نخلص إذاً من دحضنا لموقف الطرف الأول ودحضنا لموقف الفريق الثاني إلى موقف جديد ربما يكون مغايراً لكل ما سلف يتمثل في الزعم التالي: الله ليس فوق العرش، فالعرش موجود ضمن نطاق السموات، والله موجود بذاته خارج نطاق السموات والأرض، لذا فهو ليس موجود في كل مكان بذاته. فأين هو إذاً؟

الجواب: مستوياً على العرش؟

ولكن كيف؟
إن مثل هذا السؤال يدعونا إلى التفكر بمعنى هذه العبارة التي وردت في القرآن الكريم سبع مرات (ولا أخال أن أحداً يمكن أن يخطئ سبب ورودها سبع مرات على وجه التحديد في كتاب الله).

إنّ الدعوة إلى إمعان التفكر بمعنى قوله تعالى " **ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ**" يتطلب بداية تحديد معاني مفردات ثلاثة وهي:

1. استوى
2. على
3. العرش

وهذا بالضبط ما نحاول أن نقحم أنفسنا فيه قبل القفز إلى اتخاذ مواقف عقائدية ربما تدعونا إلى التخلي عن معظم آراء واعتقادات الفرق الإسلامية ذائعة الصيت.

الاستواء

ما المقصود بمفردة استوى في النص القرآني؟

إننا نظن أن مفردة الاستواء ومشتقاها – حسب فهمنا للسياقات القرآنية التي وردت فيها- تفيد "التعادل دون زيادة أو نقصان"، فإذا استوى شيء مع شيء آخر فقد تعادلا، وأما إذا لم يستويا فإنهما لا يتعادلان، فيطغى طرف على طرف، وعندها يحدث خلل يتوجب تصحيحه، ولندقق النظر في الآية الكريمة التالية:

- ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةًۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ٩٥﴾ [النساء: 95]

فالقاعدون غير أولي الضرر من المؤمنين (الطرف الأول) لا يستوون مع المجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم (الطرف الثاني) بالرغم أنهم بمجموعهم مؤمنين، لذا كان لزاماً على القاعدين من المؤمنين

أن يسووا الخلل الذي نجم عن عدم استواءهم مع المجاهدين إن هم أرادوا ذلك. ويمكن استقصاء هذا المعنى حتى بين طرفين متناقضين تماما، قال تعالى:

- ﴿قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝١٠٠﴾[المائدة:100]

فالخبيث لا يستوي مع الطيب، فحتى يتعادلا لابدّ للخبيث (الطرف الأول) أن يصحح الخلل ليتعادل مع الطيب (الطرف الثاني). ويتكرر المشهد نفسه في سياقات قرآنية عديدة:

- ﴿۞ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٢٤﴾ [هود: 24]
- ﴿قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ۝٥٠﴾ [الأنعام: 50]
- ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ۝١٦﴾ [الرعد: 16]
- ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٧٦﴾ [النحل: 76]
- ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝١٢﴾ [فاطر: 12]
- ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ۝١٩ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ۝٢٠ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ۝٢١ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ۝٢٢﴾ [فاطر: 19-22]
- ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ۝٩﴾ [الزمر: 9]
- ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٢٩﴾ [الزمر: 29]
- ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ۝٥٨﴾[غافر:58]
- ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ۝٣٤﴾[فصلت:34]

ويجب أن نلفت انتباه القارئ أن مفردة الاستواء لا تحمل في ثناياها معنى تفضيل طرف على طرف كما قد يتبادر لذهن السامع للمرة الأولى، فهذا غلط يجب الوقوف عنده قبل متابعة النقاش، فقد يظن البعض أن في قول الحق " **قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ**" أن في ذلك تفضيل للطيب على الخبيث (حتى

وإن كان كذلك)، فنقول كلا، فلو أمعنا التفكير في بقية الآية الكريمة جيداً لوجدنا أن البعض ربما يعجبوا بالخبيث (على الطيب):

- ﴿قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [المائدة: 100]

إن ما نود إثارته من هذه السياقات القرآنية هنا هو القول أنه لو كانت مفردة الاستواء تحمل في ثناياها معنى تفضيل طرف على طرف لأصبح هناك حشو غير ضروري في قوله تعالى:

- ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحديد: 10]

وكذلك في قوله تعالى:

- ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الحشر: 20]

فلم يكمل الله الآية نفسها بالقول "أصحاب الجنة هم الفائزون" إن كانت مفردة الاستواء تحمل في ثناياها معنى التفضيل؟ وبكلمات أكثر دقة فإننا نقول أنه لو كانت مفردة الاستواء تعني تفضيل طرف على آخر لكان تفضيل أصحاب الجنة على أصحاب النار أمر بديهي ولما دعت الحاجة للتأكيد على ذلك بالقول "أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ".

ويتكرر مثل هذا السيناريو في قوله تعالى:

- ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾﴾ [النساء: 95]

فلو كانت مفردة الاستواء تحمل في ثناياها معنى التفضيل لما كان هناك ضرورة لوجود تكملة للآية الكريمة على نحو "فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً".

ولا يعني الاستواء أن يكون الطرفان متناقضين كالتناقض بين الخبيث والطيب أو بين أصحاب النار وأصحاب الجنة، أو الحسنة والسيئة، فقد يكون الطرفان من نفس النوع كذاك الذي بين القاعدين من المؤمنين والمجاهدين أو بين البحر العذب والبحر المالح:

- ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ... ﴿٩٥﴾﴾ [النساء: 95]
- ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ... ﴿١٢﴾﴾ [فاطر: 12]

فالاستواء يمكن أن يكون بين أي كينونتين، لذا عندما قال الله "الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ"، فإن ذلك لا يعني بأي حال من الأحوال الإشارة إلى مفاضلة بين الرحمن من جهة والعرش من جهة أخرى، ولكن

جل ما يمكن أن نفهمه هو حصول حالة الاستواء (أي الثبات): ثبات العرش بسبب ذلك التعادل الذي فرضه الله عليه.

النتيجة (3): العرش في حالة ثبات بسبب استواء الرحمن عليه

ثانياً، يجد المدقق في السياقات القرآنية لمعنى الاستواء في الآيات السابقة حقيقة ثابتة وهي أن الاستواء لا يعني التعادل في الكمية أو الحجم، قال تعالى:

- ﴿قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ۚ ﴿١٠٠﴾ [المائدة: 100]

فالمقارنة عقدت بالرغم من قلة طرف (الطيب) وكثرة طرف آخر (الخبيث)، والمقارنة حدثت بين أصحاب الجنة وأصحاب النار بالرغم أنهم غير متساويين في العدد.

- ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۚ ... ﴿٢٠﴾ [الحشر: 20]

وكذلك هو الحال بالنسبة للبحرين، فقد يكون أحدهما أكبر حجماً من الآخر:

- ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ ... ﴿١٢﴾ [فاطر: 12]

لذا لا يجب أن يفهم من كلامنا عند الحديث عن استواء الرحمن على العرش التوازن الكمي أو النوعي بين المستوي (الذات الإلهية) والمستوى عليه (العرش)، فالرحمن قد وسع كل شي وهو أكبر من كل شي، ولكن بالرغم من ذلك فالاستواء حاصل، فلا يستطيع العرش أن يفلت من مكانه بسبب الاستواء المفروض عليه من الذات الإلهية.

لذا فالاستواء يعني – حسب فهمنا- الثبات على الحال، فالشيء المستوي لا يصبح مستوياً حتى يصل إلى درجة الاستقرار أو الثبات، وقد قدمنا في مقالة سابقة لنا مثل هذا الفهم عندما تحدثنا عن استواء نوح ومن معه على الفلك ومن ثم استواء سفينتهم على الجودي. ولا ضير في إعادة جزء من القصة هنا (ولكن للدخول في التفاصيل نرجو مراجعة مقالتنا تحت عنوان سفينة نوح ونظرية تكون القارات) لنفهم ما حصل في حالة نوح وسفينته، ومن ثم الخروج باستنتاجات ربما تفيدنا لفهم كيفية استواء الرحمن على العرش.

فالله يطلب من نوح شكر ربه بعد أن يكون قد استوى ومن معه على الفلك:

- ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾ [المؤمنون: 28]

إن أبسط ما يمكن أن نفهمه من هذا السياق القرآني هو وصول نوح ومن معه إلى حالة الثبات على ظهر السفينة، فلا يمكن أن نفهم أنه قد حصل استواء لنوح ومن معه على الفلك إن كانوا لازالوا في حالة

تحضير أو تجهيز لركوب السفينة. فمن استوى منهم على الفلك فقد أنهى علاقته مع خارجها وأصبح جاهزاً للانطلاق. ومن استوى على ظهر الأنعام فقد ركبها واستقر به الحال على ظهرها:

- ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ۝ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ۝﴾ [الزخرف: 12-13]

فسفينة نوح لم تصل إلى مرحلة الاستواء إلا بعد أن قضي الأمر:

- ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝﴾ [هود: 44]

ولا بد من الإشارة هنا أن الاستواء لا يمكن أن يتم إذا كان الشيء في غير مكانه المخصص له، فحتى تستوي السفينة لابد أن تتواجد في مكان فيه مقومات الاستواء للسفينة، وبهذا الفهم فإننا نذهب إلى معارضة كل ما ذهب إليه المفسرون السابقون من قول حول المكان الذي استوت عليه سفينة نوح، فقد ظن كثير منهم أن السفينة قد استوت على جبل لظنهم أن مفردة "الجودي" التي ورد ذكرها في القرآن هي جبل (إننا نعتقد أن معظم آرائهم تلك كانت مبنية على تفسيرات وقصص يهود، والقارئ مدعو لمراجعة الموسوعة اليهودية - على سبيل المثال - ليرى بأم عينه مقدار النقل الذي أخذه علماء الإسلام من تفسيرات أهل الكتاب)، ونحن نستغرب القول بأن مفردة الجودي تعني جبلاً لسبب بسيط وهو: هل يمكن أن تستوي سفينة على جبل؟ لقد بيّنا في مقالة سابقة لنا أنه حتى تستوي السفينة فلابد من أن توجد في مكانها المناسب الذي يمكّنها من الاستواء (الاستقرار)، لذا يستحيل أن تستوي السفينة (أي سفينة، ناهيك عن سفينة بحجم سفينة نوح تحمل من كل شيء زوجين اثنين وتجري بهم في موج كالجبال) إلا على الماء، فالماء هو المكان المناسب بالنسبة للسفينة لكي تستوي، لذا فإننا نعتقد جازمين أن الجودي (المكان الذي استوت عليه السفينة) هو جسم مائي وليس جبلاً كما ظن الأقدمون (للتفصيل حول هذا الموضوع انظر مقالتنا تحت عنوان سفينة نوح ونظرية تكون القارات)

والحالة هذه فإن الاستواء – في رأينا- يعني الوصول إلى حالة الاستقرار، أي النقطة التي تقل فيها التقلبات، ويمكن أن ندعم زعمنا هذا ببعض السياقات القرآنية التي تتحدث عن العمر، فبالرغم من أن شخصاً ما قد يصل من المرحلة العمرية درجة بلوغ الأشد، لكنه ربما لا يكون مستوياً، فالقرآن الكريم يدعونا إلى التمييز بين مرحلتين عمريتين وهما:

1. أن يبلغ الإنسان أشده
2. أن يبلغ الإنسان أشده ويستوي

ونستطيع أن نفهم الفرق بين الحالتين عندما نستعرض ما ذكره القرآن الكريم عن نبيين عظيمين وهما يوسف وموسى عليهما السلام، ففي حالة يوسف تحدث القرآن عنه عندما "بلغ أشده" فقط، قال تعالى:

- ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝﴾ [يوسف: 22]

أما في حالة موسى فقد بلغ أشده واستوى، قال تعالى:

- ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٤﴾ [القصص: 14]

وربما يسعفنا مثل هذا التمييز أن نفهم متى يجب أن يدفع لليتيم ماله، فالمتتبع للنص القرآني يجد أن دفع مال اليتيم إلى اليتيم يصبح واجباً فور أن يبلغ أشده، فالاستواء ليس شرطاً لنقل ملكية مال اليتيم إلى اليتيم:

- ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ١٥٢﴾ [الأنعام:152]
- ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ٣٤﴾ [الإسراء: 34]

ففي ذلك فرق واضح بين أن يبلغ الإنسان أشده و أن يبلغ أشده ويستوي، فالإنسان عندما يبلغ أشده تبدأ علامات الاستواء بالظهور (كالرشد مثلاً، وتميز الخير من الشر، وهكذا)، لذا قال تعالى في معرض الحديث عن دفع مال اليتيم:

- ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ٦﴾ [النساء: 6]

فبمجرد أن يبلغ الإنسان النكاح وتبدأ أمارات الرشد في الظهور يصبح لزاماً دفع ماله إليه، ولكن مثل هذه الإشارات لا تصل إلى ذروتها إلا بعد زمن، وذلك ما نفهمه من معنى الاستواء (للتفريق بين هذه الفئات العمرية ندعو القارئ لمراجعة مقالتنا تحت عنوان من هي زوجة موسى)

ما علاقة مثل هذا الفهم بمحاولتنا هنا الإجابة على التساؤل الخاص باستواء الرحمن على العرش؟

إن ربط هذا الفهم بذاك السؤال يتطلب مراقبة النص القرآني مراقبة دقيقة وإثارة تساؤل جديد وهو: لم قال الله تعالى في كتابه الكريم في أكثر من موطن عند الحديث عن الاستواء "**ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ**"؟ وبكلمات أكثر دقة، ما فائدة وجود مفردة "ثم" في السياقات القرآنية التي تحدثت عن استواء الرحمن على العرش، وسنعيدها هنا لتمحيصها من هذا الجانب:

- ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٥٤﴾ [الأعراف:54]
- ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٣﴾ [يونس: 3]

- ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝٢﴾ [الرعد: 2]
- ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ۝٥٩﴾ [الفرقان:59]
- ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٤﴾ [السجدة: 4]
- ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٤﴾ [الحديد: 4]

فلو تأملنا قصة استواء الرحمن على العرش لوجدناها قد وردت في الكتاب العزيز في سبع آيات (أليست السموات سبعاً؟)، ولو تأملنا ورود مفردة "ثم" التي تفيد الانتقال أو التدرج لوجدناها قد وردت في ست آيات من الآيات السبعة السابقة. لذا فعندما اكتمل استواء الرحمن على العرش في السماء السابعة (أي في آخر مرحلة من مراحل الاستواء) جاء قوله على هذا النحو:

- ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: 5]

وهنا فقط خلت جملة الاستواء من المفردة التي تدل على الانتقال "ثم"، ونحن هنا نثير تساؤلاً أكثر قوة وهو: لم جاءت مفردة "ثم" في هذه السياقات الستة؟ ألم يكن العرش موجوداً من ذي قبل؟ فأين كان؟ وكيف أصبح؟

للإجابة على هذا التساؤل لابد من النبش في الدلالات التي تثيرها مفردات الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾ [هود: 7]

إن المدقق في هذه الآية الكريمة يجد - بما لا يدع مجالاً للشك- بأن العرش كان لحظة أن خلق الله السموات والأرض على الماء، ولكن الآيات الكريمة التي تتحدث عن الاستواء تصور ذلك بعد الانتهاء من خلق السموات والأرض بدلالة ورود كلمة "ثم" التي تفيد الانتقال:

- ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٥٤﴾ [الأعراف:54]
- ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾ [يونس: 3]

- ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾ [الرعد: 2]
- ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾﴾ [الفرقان:59]
- ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾﴾ [السجدة: 4]
- ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الحديد: 4]

لذا، كان العرش عندما خلق الله السموات والأرض على الماء، أليس كذلك؟ ولكن ما الذي حصل بعد ذلك؟ إن هذا السؤال يجلب فيه ثناياه السؤال عن الفرق بين استواء الرحمن على العرش كما ورد في كتاب الله في سبعة سياقات قرآنية ذكرناها آنفاً، واستواء الرحمن إلى السماء كما جاء في قوله تعالى:

- ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [البقرة: 29]
- ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [فصلت:11-12]

فيرد الاستواء إلى السماء في الكتاب العزيز مرتين فقط (بينما ورد الاستواء على العرش بالمقابل سبع مرات)، ونحن نفهم من هذه السياقات القرآنية أن الاستواء إلى السماء حصل مرتين، وهنا يجب التمييز بين الاستواء إلى السماء يوم أن كانت كتلة واحدة:

- ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ ...﴾
- ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ...﴾

فحصل ذلك في يومين **فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ**، ونحن نستطيع تصور المشهد على النحو التالي:

كان العرش بداية على الماء ولكن لما استوى الله إلى السماء وقضاهن سبع سموات كان لزاماً ارتفاع العرش ارتفاعاً تدريجيا، فارتفع أولاً إلى السماء الأولى واستوى الرحمن عليه " **ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ**"، ثم إلى الثانية "**ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ**"، فالثالثة "**ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ**"، فالرابعة "**ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ**"، فالخامسة "**ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ**"، فالسادسة "**ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ**"، إلى أن وصل إلى السابعة فكانت الصورة على نحو " **الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ**"

لقد كان استواء الرحمن على العرش يحدث في كل مرة يرتفع العرش من سماء إلى السماء التالية وذلك لضرورة تثبيت العرش، فالعرش كان على الماء ولم يكن مستوياً (مستقراً) دون استواء الرحمن عليه، ولما ارتفع إلى السماء الأولى كان استواء الرحمن عليه ضرورة لتثبيته (أي في حالة الاستقرار والثبات في تلك اللحظة)، وحصل ذلك في السماء الثانية والثالثة حتى السماء السابعة، وقد يرد البعض بالقول: لم لم يحصل كل ذلك دفعة واحدة؟ لم جاء تدريجياً على هذا النحو؟ فنرد عليه بالقول أن الإجابة على مثل هذا التساؤل موجودة في الآية التي تليها مباشرة، وكل ما هو مطلوب هو إمعان التفكير بمفردات الآية جيداً، وربط الآيات مع بعضها البعض:، فلنقدم الآيتين معاً مرة أخرى ونتأملهما جيداً:

- ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ١١ فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ١٢﴾ [فصلت:11-12]

لقد كان انتقال العرش انتقالاً تدريجياً من سماء إلى سماء "ليتم وحي الله في كل سماء أمرها". فما فائدة العرش إن لم يكن لتلك الغاية؟

وعند التدقيق في السياقات القرآنية المرتبطة بهذا الموضوع نجد لزاماً التعرض للآية الكريمة التالية، ومن ثم ربطها بقضية استواء الرحمن على العرش، قال تعالى:

- ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّۖ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ١٢﴾ [الطلاق: 12]

فالآية الكريمة تشير إلى أن الله قد خلق سبع سموات وعرش واحد، وقد بينا أن العرش قد انتقل انتقالاً تدريجياً من سماء إلى أخرى حتى بلغ السماء السابعة، ولكن الآية السابقة تثير تساؤلاً جديداً وهو أن الله (كما خلق سبع سموات) خلق من الأرض مثلهن، فأين إذا تلك الأراضين السبعة (إن صح القول)؟

إن المتتبع لقصة ارتفاع العرش من سماء إلى سماء واستواء الرحمن على العرش في كل سماء لكي يوحي في كل سماء أمرها **وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَا** يبين لنا أن كل سماء كان لها أرضها الخاصة بها، فالسماء الدنيا لها أرضها، والسماء الثانية لها أرضها، وهكذا. وهذا الكلام يمكن فهمه من قوله تعالى:

- ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ١٢﴾ [فصلت: 12]

وربط ما تتضمنه هذه الآية الكريمة مع ما صرحت به الآية السابقة في قوله تعالى:

- ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّۖ ... ١٢﴾ [الطلاق: 12]

فالسماء الدنيا قد زينت بمصابيح وحفظا، لذا فقد أوحى الله في كل سماء أمرها، وهذا ربما يجيب على احتمالية وجود كائنات غيرنا في هذا الكون، ولكننا نزعم أنه إن صح هذا الاعتقاد فسيكون ذلك ليس ضمن نطاق سمائنا الدنيا (لأن السماء الدنيا لها أرض واحدة، والقارئ مدعو لمراجعة جميع الآيات التي تتحدث عن الحياة الدنيا)، ولكن قد يكون ضمن نطاق السماء الثانية والثالثة وهكذا (للتفصيل حول هذا الموضوع انظر فهمنا لقصة يأجوج ومأجوج الذي قدمناه ضمن مقالة لنا تحت عنوان "مصادر التشريع في الإسلام")

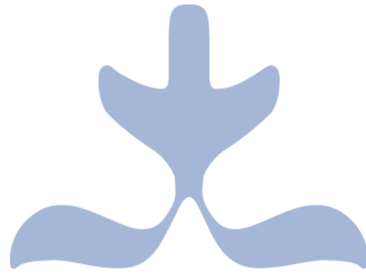
إنّ ما يهمنا هنا هو الحديث عن عرش واحد انتقل من سماء إلى سماء، واستوى الرحمن عليه في كل سماء حتى أوحى فيها أمرها، ولما كان بحثنا هنا يخص السياقات القرآنية التي تتحدث عن الاستواء على العرش، نجد لزاماً (بعد التعرض لمفردة الاستواء) أن ننتقل للحديث عن مفردة العرش كما ترد في السياقات القرآنية لنجيب على تساؤلين اثنين وهما:

1. ما هو العرش؟
2. لم العرش؟

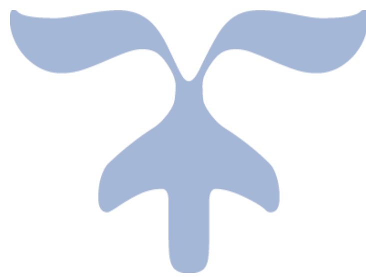
لنخلص إلى القول أن العرش هو "مكان الحكم"، وهو ما يفسر حتمية نزوله في يوم الحساب الأكبر:

- ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٧٥﴾ [الزمر:75]
- ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ۝١٦ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَـٰنِيَةٌ ۝١٧ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ۝١٨ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَـٰبِيَهْ ۝١٩﴾ [الحاقة: 16-19]

وللحديث بقية



معنى حرف الجر "على"ج2



معنى حرف الجر "على" ج2

لقد تطرّقنا في الجزء السابق إلى الجزئية الأولى في هذه القضية، وقد كان جلّ النقاش منصباً على محاولتنا فهم معنى مفردة الاستواء في قوله تعالى " الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى"، وكانت الغاية المرجوّة في فهم كيفية استواء الرحمن على العرش هي محاولة الخروج من الإشكالات التي خلّفتها الأفهام السائدة السابقة خصوصاً تلك التي تعلقت بمعنى "العلو" (أو الفوقية في نظرهم) الذي يتضمنه حرف الجر على في جميع آيات الاستواء على العرش التي وردت في كتاب الله، وستكون المساهمة الأكبر التي نقدمها تتمثل في الخروج باستنباطات حول معنى حرف الجر على في النصوص القرآنية تنفي معنى الفوقية الذي تحدث عنه الأقدمون، وحتى يتم لنا الوصول إلى ذاك الهدف نجد لزاماً التعرض إلى مفردة العرش التي وردت في السياقات نفسها (بعد أن كنا قد تعرضنا لمفردة استوى في المقالة السابقة) ، لنفهم ماهية ذلك العرش الذي حصل استواء الرحمن عليه. وقبل الخوض في خضم هذا الحديث نجد لزاماً التأكيد على موقفنا العقائدي أولاً والفكري ثانياً الذي يتمثل في إنكار المجاز في القرآن الكريم، فمادام أن القرآن هو كلام الله على الحقيقة فهو يخلو من المجازات، لذا فنحن نبحث عن المعاني الحقيقية وليست التصورات المجازية (للتفصيل في هذا الموضوع انظر مقالتنا تحت عنوان جدلية الحقيقة والمجاز في القرآن الكريم).

العرش

بعد أن تحدثنا عن الاستواء ننتقل الآن لنخوض في معنى مفردة العرش التي وردت في الآية الكريمة التي نحن بصدد تبيان بعض جوانبها:

- ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: 5]

لنسأل عن ما يمكن أن يسهم به فهمنا في تجلية مشهد استواء الرحمن على العرش كما تصورها آيات الكتاب الكريم. ولنبدأ بالتساؤل التالي: ما هو العرش؟

لقد وردت هذه المفردة ومشتقاتها في أكثر من موطن من كتاب الله، فقد وردت عند الحديث عن بلقيس:

- ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ۝٣٨﴾ [النمل: 38]
- ﴿قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرۡشَهَا نَنظُرۡ أَتَهۡتَدِيٓ أَمۡ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهۡتَدُونَ ۝٤١﴾ [النمل: 41]
- ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِۖ قَالَتۡ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ وَأُوتِينَا ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهَا وَكُنَّا مُسۡلِمِينَ ۝٤٢﴾ [النمل: 42]

ووردت كذلك عند الحديث عن يوسف:

- ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّاۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝١٠٠﴾ [يوسف: 100]

وهنا نجد لزاماً إثارة التساؤل التالي: لم ورد الحديث عن العرش في خضم الحديث عن يوسف وبلقيس على وجه التحديد؟ ولم لم يرد الحديث عن العرش في خضم الحديث عن فرعون مثلاً؟ ألم يكن فرعون ملك مصر؟ ألم تتكرر قصة فرعون عشرات المرات في القرآن؟ لِمَ لَمْ يتحدث الله عن "عرش فرعون"؟!

الجواب: لأننا نزعم أن فرعون لم يكن له عرش

ولكن كيف ذلك؟ ألم يكن هو حاكم مصر وسيدها والرب المطاع فيها؟ فلم لا يكون له عرش؟

الجواب: ذلك يتطلب منا فهم معنى مفردة العرش كما تجليها السياقات القرآنية.

سمات العرش

أولاً، إننا نعتقد أن العرش هو صفة ملازمة للملوك، فمن كان ملكاً، ربما يكون له عرش بينما من لم يكن ملكاً فليس له عرش، لذا فإن الله قد ذكر في كتابه الكريم أنه هو رب العرش:

- ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۝١٢٩﴾ [التوبة: 129]
- ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٢٢﴾ [الأنبياء: 22]
- ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۝٨٦﴾ [المؤمنون: 86]
- ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ۝١١٦﴾ [المؤمنون: 116]
- ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ۝٢٦﴾ [النمل: 26]
- ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٨٢﴾ [الزخرف: 82]

فالله له عرش لأنه - ببساطة- هو الملك:

- ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝١٠٧﴾ [البقرة: 107]
- ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١٨٩﴾ [آل عمران: 189]

فبالرغم أنها سبع سموات إلا أن لله عرش واحد:

- ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۝٨٦﴾ [المؤمنون: 86]

فلله عرش واحد وذلك بسبب عدم وجود الشريك له في الملك:

- ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الفرقان: 2]

فمتى أصبح هناك شريك في الملك، لن يكون هناك عرش:

- ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنبياء: 22]

والسبب كما تصوره الآية الكريمة نفسها هو الفساد، فمتى أصبح هناك أكثر من عرش ظهر الفساد:

- ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنبياء: 22]

وهذا يعيدنا بالضبط إلى النقطة التي انطلقنا منها وهي سبب ورود العرش في خضم الحديث عن قصة يوسف عندما رفع أبويه على العرش، وكذلك عند الحديث عن ملكة سبأ على وجه التحديد، فنحن نظن أن السبب هو عدم وجود الفساد في حالة ملك مصر وملكة سبأ، لأن من أساسيات وجود العرش هو العدل، فمتى عمّ العدل أصبح هناك حاكم واحد وانتفت الدعوة إلى الانقسام.

فلو تدبّرنا قصة ملكة سبأ لوجدنا أنها كانت ملكة عادلة وكان شعبها شعباً موحداً، فشاورتهم بالأمر:

- ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾﴾ [النمل: 32]

فردوا عليها بالمشورة والنصح، ولكنهم لم يعدموا في الوقت ذاته القول أن الأمر منوط بها كصاحبة للعرش، فأمرها مطاع:

- ﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [النمل: 33]

فاتخذت هي القرار الذي ظنته مناسباً، فما ثاروا ولا انتفضوا ضد قرارها:

- ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [النمل: 34-35]

والمتتبع لأمر ملك مصر في زمن يوسف النبي يجد أن الملك كان ملكاً عادلاً، وليس أدل على عدله مما فعل يوم انتهى إليه خبر ما فعلت النسوة بيوسف، وكيف عامل يوسف بعد ذلك بكل ما يتطلبه العدل الحقيقي بالرغم أن يوسف كان غريبا عن أرض مصر، والأهم من ذلك فإن سيرة الرجل تبين أن مملكته كانت موحدة غير منقسمة، فهو الحاكم المطاع، وقد كان ذلك بسبب عدل الرجل، فمشورته للملأ كانت جلية حتى في أقل الأمور أهمية، فها هو يشاركهم حتى أحلامه:

- ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ ٤٣﴾ [يوسف: 43]

فطلب الفتوى من الملأ (وهم حاشية) كان من أهم ميزات ملك مصر صاحب العرش هذا (كما كان سمة بارزة في حكم ملكة سبأ)، لذا لا نستغرب كثيراً عندما نجد أن الله نفسه يتحدث عن ملئه:

- ﴿وَحِفۡظٗا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ ٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ ٨﴾ [الصافات: 7-8]
- ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنۡ عِلۡمِۭ بِٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰٓ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ٦٩﴾ [ص: 69]

ولكن يجب التنبيه إلى أن من ميزات العرش كذلك أن يكون الملأ (حاشية السلطان) ممن يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فصحيح أن فرعون كان له ملأ، إلا أنهم كانوا سبباً رئيسياً في هلاكه، فبدل أن ينصحوه، كانوا سيوّلون له الأمور حتى أهلكوه وهلكوا معه، فهم من حث فرعون على التصدي لموسى:

- ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ ١٢٧﴾ [الأعراف: 127]

وهم أصلاً من تآمروا على موسى حتى دون علم فرعون نفسه:

- ﴿وَجَآءَ رَجُلٞ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ فَٱخۡرُجۡ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٢٠﴾ [القصص:20]

فالمدقق في هذه الآية الكريمة يجد أن الملأ هم من كانوا يأتمرون بموسى ليتخلصوا منه، فحتى لو كان فرعون على استعداد لقبول موسى (ودعوته) ما كان ملأ فرعون سيتركونه وشأنه، فالرجل الذي جاء محذراً موسى بيّن لموسى أن كل ذلك يحصل بسبب الملأ (وليس بسبب فرعون نفسه):

- ﴿وَجَآءَ رَجُلٞ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ فَٱخۡرُجۡ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٢٠﴾ [القصص:20]

وهذا يدلنا على أن فرعون لم يكن بدراية بكل ما كان يحصل في قصره، فكيف به سيكون صاحب عرش ما دام أنه على غير دراية كافية بكل ما يحصل في بلاطه؟ فالملك صاحب العرش لا بد أن يكون مسيطراً تماماً على عرشه، وإلاّ لأصبح العرش في مهب الريح، يتلاعب به الملأ حتى يكونوا سبباً رئيسياً في زواله (وهذه لا شك دعوة لكل ملوك الأرض ليفهموا أن عرشهم لن يدوم إلا أن يكونوا هم من يملكوه وأن لا تكون حاشيتهم من أمثال ملأ فرعون).

ولكن يبقى السؤال قائماً، ما هو العرش؟

تسلط الآية الكريمة التالية الضوء على ما يمكن أن نتخيله فيما يخص كينونة العرش:

- ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ۝٦٨﴾ [النحل: 68]

فالعرش هو بناء لا يكون جزءاً من الطبيعة، وإنما بناء مستحدث يمكن أن يتغير ويتشكل بطرق مختلفة، فيمكن للناس أن يعرشوا أبنيتهم بالطريقة التي يريدونها، ويمكن كذلك أن يبلى وينتهي كما تصوره الآيات الكريمة التالية:

- ﴿أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٖ ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ قَالَ كَمۡ لَبِثۡتَۖ قَالَ لَبِثۡتُ يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۖ قَالَ بَل لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٖ فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِۖ وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗاۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٢٥٩﴾ [البقرة: 259]
- ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئۡرٖ مُّعَطَّلَةٖ وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ ۝٤٥﴾ [الحج: 45]
- ﴿وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ ۝١٣٧﴾ [الأعراف:137]

ويمكن كذلك أن ترفع العروش من مواد مختلفة في الأساس، فليس بالضرورة أن تكون العروش مصنوعة من نفس المادة الخام التي يمكن أن تبنى منها البيوت، فالجنات (المزارع) يمكن أن تكون معروشة وغير معروشة كما تصورها الآيات الكريمة التالية:

- ﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ۝١٤١﴾ [الأنعام: 141]
- ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ۝٤٢﴾ [الكهف: 42]

ولو دققنا النظر في الآية الكريمة لوجدنا أن الجنات المعروشات وغير المعروشات هي جنات من أعناب على وجه الخصوص، ولنعيد الآية مرة أخرى ونتأملها من هذا الجانب:

- ﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ ... ۝١٤١﴾ [الأنعام: 141]

فالآية تبين أن هناك جنات معروشات وغير معروشات من جهة وهناك النخل والزرع والزيتون والرمان، فالله لم يقل انه أنشأ لنا جنات معروشات وغير معروشات من النخل والزرع والزيتون والرمان،

ولكنه فصل بين الجنات المعروشات وغير المعروشات (من جهة) والنخل والزرع بشتى أنواعه (**مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ**) والزيتون والرمان (من جهة أخرى)، فتلك لا تعرش (أي لا ترفع على قواعد كما ترفع الأبنية)، ولو تدبرنا قصة الرجلين اللذين جعل الله لأحدهما جنتين لوجدنا أن الحديث عن الأعناب جاء منفصلاً عن الحديث عن النخل مثلاً:

- ﴿۞ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ٣٢﴾ [الكهف: 32]

ولكن ما الذي حصل عندما أعرض ذلك الرجل ولم ينسب ذلك الفضل إلى الله، جاء العقاب الرباني على الجنتين على النحو التالي:

- ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ٤٢﴾ [الكهف: 42]

ولو تدبرنا معظم السياقات القرآنية لوجدنا الحديث عن الجنات تخص شجر الأعناب والنخيل، ولكن عندما نتحدث عن المعروش منها نجد الحديث قد انحصر على الأعناب فقط، وهنا نطلب من القارئ تخيل كيف يمكن أن يكون شجر الأعناب معروشاً.

إن الجواب بسيط جداً يتمثل في تخيل شجرة العنب محمولة على قواعد ثابتة بالأرض ليتدلى الثمر، فتكون قطوفها دانية:

- ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ٢٢ قُطُوفُهَا دَانِيَةٞ ٢٣﴾ [الحاقة: 22-23]

وربما يفسر مثل هذا الفهم كيفية نزول العرش يوم الحساب، والملائكة تحمله:

- ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ ١٦ وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ ١٧﴾ [الحاقة: 16-17]

فالعرش هو بناء رباني مرفوع على ثمانية قواعد تشبه صورته صورة جنات الأعناب المعروشة (أي المرفوعة على القواعد)، وهنا يتبادر للذهن سؤال مفاده: لم ثمانية؟

الجواب: تتكرر صورة الملائكة وهي تحمل شيئاً ما في واحدة من قصص بني إسرائيل، ولنتفقد القصة من الجوانب التي ذكرناها سابقاً جميعاً:

- ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٢٤٦ وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ

يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن
يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن
رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن
كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى
وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ
وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم
مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟
رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ
دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ
لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ [البقرة: 246-251]

ولو تفقدنا القصة جيداً، لوجدنا أن القوم يطلبون ملكاً، فيبعث الله لهم طالوت ملكا، ويكون هناك دليل (آية) على ملكه، وكان ذلك الدليل عبارة عن التابوت الذي تحمله الملائكة، فكيف يمكن أن نتصور ذلك التابوت الذي تحمله الملائكة؟

إن صورة حمل الملائكة شيئا ما قد وردت في هاتين الحالتين في كتاب الله:

1. صورة الملائكة تحمل عرش الملك يوم القيامة ليتم الفصل والقضاء بين الناس بالعدل
2. صورة الملائكة تحمل التابوت لطالوت ملكاً ليقيم العدل بعد ما أصاب القوم من ظلم

ربما تبين لنا هذه الصور كيفية حمل الملائكة لعرش ربنا يوم الحساب، فلو دققنا في مجمل الآيات لوجدنا أن رب العرش الكريم سيكون خارج نطاق العرش، فهو سيكون على أرجائها:

- ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَاۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾﴾ [الحاقة: 16-17]

فالملك إذن قائم على أرجائها، وهو غير محمول على العرش، لأنه سيأتي بنفسه تصحبه الملائكة:

- ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾﴾ [البقرة: 210]
- ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًاۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأنعام: 158]
- ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر: 21-22]

إذن، لنتصور المشهد على النحو التالي:

ينفخ في الصور النفخة الأولى فيصعق من في السموات والأرض إلا من شاء الله:

- ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ... ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر: 68]

ينفخ فيه أخرى فيقوم الجميع إلى ربهم:

- ﴿...ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر: 68]

تنشق السماء، فإذا بالملك على أرجائها، ويحمل ثمانية من الملائكة تحمل عرش الرحمن ليقضى بين الناس بالحق

- ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾﴾ [الحاقة: 16-17]

فيأتي ربك والملائكة تكون حاضرة صفاً صفاً

- ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر: 22]

تشرق الأرض بنور ربها، فيوضع الكتاب ويتم حضور النبيين والشهداء:

- ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الزمر: 69]

فتكون الأرض قبضته والسموات مطويات بيمينه:

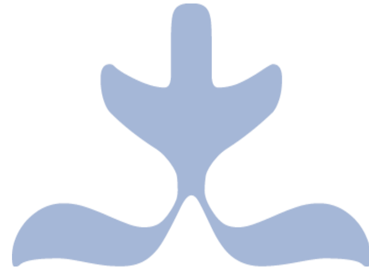
- ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر: 67]

لتبين حقيقة الفصل بين الذات الإلهية من جهة والسموات والأرض من جهة أخرى، وهو ما يدعم موقفنا الذي ذكرناه سابقاً وهو الفصل بين الوجود الفيزيائي للذات الإلهية من جهة وجميع خلقه من جهة أخرى. وهذا ينقلنا إلى الحديث عن كيفية الاستواء على العرش لنثير التساؤل التالي: كيف يستوي الإله على العرش مادام أنه منفصل عنه؟

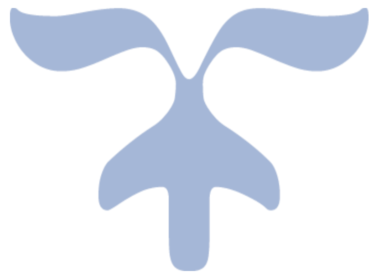
الجواب: لابد من تدبر معنى حرف الجر "على" في النص القرآني

وللحديث بقية

22 تشرين ثاني 2011



معنى حرف الجر "على" ج3



معنى حرف الجر "على" ج3

هذه هي المقالة الثالثة في سلسلة المقالات التي تتعرض في مجملها لمعنى حرف الجر "على" في العربية، تعرضنا في المقالة الأولى لمعنى مفردة استوى، وفي المقالة الثانية لمفردة العرش، وسنحاول التعرض هنا لمعنى حرف الجر على، لتشكل بمجموعها مفردات الآية الكريمة التي كان جلّ النقاش السابق منصباً حولها:

- ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: 5]

إن محرك البحث هنا سؤال واحد مفاده: ما هو المعنى الحقيقي لحرف الجر على في العربية؟

والنظرية التي نقدمها هنا تتمثل في الافتراض أن حرف الجر على (كما كل كلمات اللغة الجامدة) هي مفردات اختزلت فيها معاني عبارات (وربما جمل) كاملة، كان داع الاقتصاد في استخدام اللغة يقضي بضرورة اختزال تلك المعاني في كلمات جامدة، أصبح من التعذر مع مرور الزمن التفكير بكل تلك المعاني لحظة استخدام المفردة الجامدة التي اختزلتها، ونحن نعتقد أن هذه ظاهرة لغوية شائعة في كل لغات الأرض، ولنضرب المثال التالي لتوضيح الصورة:

لقد أصبحت مفردة مثل كلمة NATO الإنجليزية مستخدمة في كثير من لغات العالم، وأصبح المتحدثون بتلك اللغات يستخدمون تلك الكلمة بمعناها الدارج، ولكننا نطرح هنا السؤال التالي: مَنْ مِنْ هؤلاء يعرف المعنى الحقيقي لتلك الكلمة؟ فكم الذين يعرفون أن هذه الكلمة قد اختزلت عبارة بأكملها وهي North Atlantic Treaty Organization؟ وحتى الذين يعرفونها منهم، ربما لا يعرفون على وجه الدقة الدول التي تشكل بمجموعها هذا الحلف السياسي العسكري. والمهم في الأمر أنه غالباً ما أخذت مثل هذه المفردات الجامدة (مع مرور الزمن) منحى في الاستخدام أفقدها كثيراً من المعاني التي كانت تختزلها العبارة الأصلية التي اشتقت منها، فتغلب جانب من معانيها على بقية الجوانب الأخرى، :أن يتغلب الجانب السياسي على الجانب العسكري أو العكس، والمثال الطريف الذي نقدمه هنا هو الكلمة الإنجليزية الشائعة جداً وهي مفردة WC، فقلّ من لازال يذكر من أهل اللسان الإنجليزي أنفسهم (وربما من متعلمي اللغة الإنجليزية) أن WC هي في الأساس Water Closet، فالمعنى الدّارج للكلمة أفقدها المعنى الذي اختزلته تلك الكلمة من العبارة الأم، لذا ربما يصعب على الكثيرين ربط معنى WC مع المعاني التي كانت تحملها Water Closet في طياتها واختزلتها في الكلمة الجامدة الشائعة WC.

ما معنى حرف الجر على في العربية؟

إن سبب الخلاف الذي نشب بين بعض الفرق الإسلامية قديماً في قضية الاستواء على العرش كان مبنياً في الأساس على افتراض – في نظرنا- خاطئ. فلقد ظن المتخاصمون فكرياً أن مفردة "على" تفيد الفوقية، وقد جاء ظنهم هذا من المعنى السائد لديهم عن معنى "على"، مدفوعين في الأساس بمبدأ التغليب، فكثرة استخدام على من هذا القبيل أفقد الناس القدرة على التركيز في الاستخدامات الأخرى (وهذا ما سنناقشه بعد قليل)، أما نحن فنظن أن هذا الفهم الخاطئ هو جوهر الصراع الذي ضلّ طريقه لقرون،

وما ننوي أن نقحم أنفسنا فيه هنا هو تبيان غلطهم في فهم معنى حرف الجر *على* في النص القرآني. لذا نجد لزاماً تقديم رأينا على مرحلتين، حيث نقوم بتفنيد الفهم السابق الذي أخطأ المعنى الحقيقي لحرف الجر على في المرحلة الأولى، ونقدم رأينا الذي نظن أنه الأكثر دقة وتميزا كبديل لفهمهم في المرحلة الثانية.

المرحلة الأولى: تفنيد الرأي السابق

عندما جاء الحديث عن معاني حروف الجر في العربية، روّج أهل اللغة (وتبعهم في ذلك أهل العقيدة) لمعنى سائد شائع لكل حرف من هذه الحروف، فظنوا أن "في" تفيد الدخول في الشيء، بينما تفيد على الفوقية، وهكذا، والغريب في الأمر أنهم عزوا ما يشذ عن هذه المعاني من استخدامات إلى تفسيرات وتأويلات مجازية، ففي حين أن حرف الجر في يفيد – في نظر معظم المروجين لهذه البضاعة- الدخول في الشيء، إلا أنهم عجزوا عن تفسير قوله تعالى على لسان فرعون:

- ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ٧١﴾ [طه: 71]

فكيف بفرعون إذاً سيصلبن من عارضه من السحرة "في داخل جذوع النخل"؟ فهل تستقيم فكرة الصلب في داخل جذوع النخل "إن كانت في تفيد الدخول في الشيء"؟

لا بل كانت الطامة الكبرى في مثل ذاك الفهم التقليدي "الساذج" بادية للداني والقاصي يوم أن نقرأ في كتاب الله الآية الكريمة التالية:

- ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ٢١٠﴾ [البقرة210]

فنحن نتساءل :كيف سيأتي الله "في ظلل من الغمام (إن كانت "في" تفيد الدخول في الشيء)؟

ولما وجد المفسرون للنص الديني مثل هذه الآيات الكريمة التي يعجز طرحهم السابق لمعاني حروف الجر التعامل معها بشكل مرض، لجاءوا إلى تجويز ما لا يجوز (أي المجاز)، والتحليق في سماء المجازات والاستعارات، فظن معظمهم أن هذه استخدامات مجازية يصعب حملها على الحقيقة، وروجوا لمثل هذا القول بأدلة ظنوا أنها تدعم موقفهم. والغريب في موقفهم هذا أنهم لا يترددون لحظة واحدة في التخلي عن تلك المجازات (التي استخدموها وأقنعتهم ردحاً من الزمن) إن استطاع أحدهم كشف المعنى الحقيقي الذي غفلوا عنه لقرون من الزمن.

موقفنا: إننا نعتقد جازمين أنه ما دام أن القرآن الكريم هو كلام الله على الحقيقة فلا وجود للمجاز فيه، فكل لفظ يجب أن يفهم على حقيقته، ولكن المشكلة تكمن في فهمنا لحقيقة هذه المعاني، فنحن نرى أن المجاز لا يستخدمه المفسرون للنص القرآني إلا بسبب عجزهم عن فهم (أو التوصل إلى) المعنى الحقيقي، فلو كان أهل اللغة وأهل العقيدة على دراية كافية بالمعاني للحقيقية لما لجاءوا إلى التفسيرات المجازية (للتفصيل في هذا الموضوع انظر مقالتنا تحت عنوان جدلية الحقيقة والمجاز في القرآن الكريم وكذلك مصادر التشريع في الإسلام).

إن مراد القول هو أن اكتشاف المعنى الحقيقي يغني عن اللجوء إلى التفسيرات المجازية، ونحن ننوي أن نقدم هنا المعنى الحقيقي لحرف الجر "على" – كما نفهمه، وسنحاول تبيان كيف يمكن أن يسعفنا مثل هذا الفهم (على علاّته) عن التحليق في سماء المجازات.

نفي الفوقية المكانية عن استخدامات حرف الجر على

أولا، نود أن نتساءل كيف يمكن أن يستقيم معنى الفوقية (الذي تحدث به الأقدمون وكثير من المحدثين) في حرف الجر "على" مع السياقات القرآنية التالية:

- ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةٗۚ قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدٗا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓۖ أَمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨٠﴾ [البقرة: 80]
- ﴿إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ١٦٩﴾ [البقرة: 169]
- ﴿إِذۡ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمۡ أَن تَفۡشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٢٢﴾ [آل عمران: 122]
- ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ١٥٩﴾ [آل عمران: 159]
- ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١٧﴾ [النساء: 17]
- ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ عُدۡوَٰنٗا وَظُلۡمٗا فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ٣٠﴾ [النساء: 30]
- ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثۡمٗا مُّبِينًا ٥٠﴾ [النساء: 50]
- ﴿۞ وَمَن يُهَاجِرۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗۚ وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٠٠﴾ [النساء: 100]
- ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ١٦٥﴾ [النساء:165]
- ﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ١٦٩﴾ [النساء: 169]
- ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعۡرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ وَيَقُولُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٨﴾ [هود: 18]
- ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ ٢٠﴾ [إبراهيم: 20]
- ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٣٨﴾ [إبراهيم: 38]

فورود حرف الجر "على" سابقاً للفظ الجلالة (عَلَى ٱللَّهِ) في سياقات كثيرة في كتاب الله يدلنا – بما لا يدع مجالاً للشك - أن الفوقية هي آخر ما يمكن أن نفكر فيه (هذا إن كان هناك أصلا مجال للتفكير كهذا) عند الحديث عن معنى حرف الجر "على" في السياقات القرآنية، فمن بديهيات التفكير أن لا يكون هناك شيء يرتفع فوق الذات الإلهية، ففكرة العلو على الله مرفوضة جملة وتفصيلا، لذا جاء في قوله تعالى:

- ﴿وَأَن لَّا تَعۡلُواْ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ١٩﴾ [الدخان: 19]

والسبب في ذلك بسيط للغاية وهو ما ورد في قوله تعالى:

- ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ١﴾ [الأعلى: 1]

فالله هو الأعلى ويستحيل أن يكون هناك شيء يعلو على الله حتى ولو وردت صيغة "**على الله**" في عشرات السياقات القرآنية.

وقفة قصيرة: الله الأعلى : الله أكبر

وهنا نجد لزاماً التوقف للحظة والتعرض لجزئية مهمة جداً في الخطاب الديني تخص هذه المفردة، فالله يقول عن نفسه أنه هو الأعلى، أليس كذلك؟

إن المفارقة الجديرة في الانتباه –في رأينا- هو أن الله لم يقل عن نفسه في أي سياق قرآني أنه الأكبر، ولكننا نعلم أنه يمكن أن نقول عن الله بأنه "أكبر"، وليس أدل على ذلك من خطاب المناداة إلى الصلاة (الله أكبر الله أكبر)، فالسؤال هو: لم قال الله عن نفسه أنه هو الأعلى بينما لم يقل عن نفسه أنه هو الأكبر؟

إننا نعلم أن مفردة "الأكبر قد وردت عند الحديث عن الحج مثلاً:

- ﴿وَأَذَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥۚ فَإِن تُبۡتُمۡ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٣﴾ [التوبة: 3]

وكذلك عند الحديث عن ذاك الفزع الموعود:

- ﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ١٠٣﴾ [الأنبياء:103]

ووردت عند الحديث عن العذاب:

- ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٢١﴾ [السجدة: 21]
- ﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَكۡبَرَ ٢٤﴾ [الغاشية: 24]

إننا نظن أننا نستطيع من خلال مثل هذه السياقات القرآنية أن نخلص إلى الفهم بأن استخدام مفردة الأكبر تعني وجود حد، فالحج الأكبر ليس هناك حج أكبر منه، ولا يوجد فزع أكبر من الفزع الأكبر، وكذلك هو العذاب الأكبر. لماذا إذاً لا نستطيع أن نقول أن الله هو الأكبر؟

الجواب: إنّ القول أن الله هو الأكبر يعطي مؤشراً أن هناك حد "لكبر" الله، ولكن عندما نقول أن الله هو أكبر (وليس الأكبر) فذاك يعطي مؤشراً أن ليس هناك حد "لكبر" الله، فالله ليس محدودا في "كبره"

(وسنتعرض لاحقاً لمعنى أكبر، فهي ليست كما ظن الكثيرون كلمة خاصة بالحجم، بل هي كلمة خاصة بالزمن)، ولنتخيل ذلك مع شكل توضيحي، فلو تفكرنا بخط الأعداد المستخدم في علم الرياضيات:

-----------------------------صفر--------------------------

فإلى اليسار من الصفر هناك الأعداد في السالب، وإلى اليمين من الصفر هناك الأعداد بالموجب، وسؤالنا هنا هو: ما الفرق بين أن نقول أن هذا الرقم هو الأكبر وأن نقول هذا الرقم هو أكبر؟ فلو تخيلنا رقماً ما، وقلنا أن هذا الرقم هو الأكبر، لربما فهمنا أن ليس هناك عدد أكبر منه، ولكن بالمقابل عندما نقول أن هذا الرقم هو أكبر، لفهمنا أنه مهما تفكرنا برقم كبير فإن هناك رقم يمكن أن يكون أكبر منه، وكذا الحال بالنسبة للإله (ولله المثل الأعلى)، فمهما تفكرنا بشيء كبير فإن الله يبقى أكبر منه، لذا فالله هو أكبر (وليس الأكبر فقط)

إذن، ما قصة الأعلى؟

إننا نفهم من قوله تعالى "سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى" أن هناك حد لعلو الذات الإلهية، فلو قال الله عن نفسه أنه أعلى (وليس الأعلى) لربما فهمنا أن ليس هناك حد لعلو الإله، ولكن لمّا قال الله عن نفسه أنه الأعلى فإن الله يخبرنا أن هناك حد لعلوه. والسياقات القرآنية التالية تدعم مثل هذا الفهم:

- ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ۝٦٧ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٦٨﴾ [طه: 67-68]
- ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ ۝٨﴾ [الصافات: 8]
- ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧﴾ [النجم: 7]

وها هو الله يقول عن نفسه أنه هو الأعلى:

- ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ [الأعلى: 1]
- ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٖ تُجْزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٠﴾ [الليل: 19-20]

النتيجة: إذا ما تصورنا الذات الإلهية في العلو والكبر فإننا نقول أن الإله غير محدود في "كبره" لأنه أكبر (وليس الأكبر)، ولكنه محدود بعلوّه لأنه (الأعلى). ويمكن تطبيق ذلك على الصفات الإلهية الأخرى كالكرم وغيرة (اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ)، وهكذا.

فهذا الطرح ربما يحل – برأينا- مشكلة فرعون التي جاءت من دعواه بأنه هو ربهم الأعلى، قال تعالى:

- ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٤﴾ [النازعات: 24]

فلو قال فرعون لقومه "أنا ربكم" وكفى لما كان في ذلك مشكلة إطلاقا، فيوسف عليه السلام يقول لصاحبه السجن يوم أن عاد إليه ليأخذه معه إلى بلاط الملك:

- ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾ [يوسف: 50]

فالملك هو رب صاحب يوسف، وفرعون هو رب مصر وأهلها في ذلك الزمن، لذا فإن المشكلة لم تكن في ظنّه بأنه ربهم، ولكنها تكمن – بكل تأكيد- في ظنّه أنه هو "ربهم الأعلى". ولهذا الاعتقاد تبعاته العظيمة التي سنناقشها في مقالة مستقلة بحول الله وتوفيقه.

وربما يحل مثل هذا الطرح إشكالية أخرى غالباً ما سألني عنها صديقي وأحد "المعجبين" بتخاريفي السيد علي محمود سالم الشرمان خاصة بعد قراءته لسلسلة مقالاتي تحت عنوان هل لعلم الله حدود عن الاستفسار الرباني من إبليس عن سبب عدم سجوده لآدم حيث جاء قول الحق:

- ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [ص: 75]

فقد كانت حيرة صاحبنا عن معنى مفردة " الْعَالِينَ" في هذا السياق القرآني تتمثل في التساؤل التالي: كيف تختلف عن مفردة " أَسْتَكْبَرْتَ"؟ أي ما الفرق بين أن يكون إبليس قد استكبر أو أنه كان من العالين؟

الجواب حسب فهمنا: يقدم الله سببين لا ثالث لهما عن سبب عدم سجود إبليس لآدم وهما:

1. إما أن يكون إبليس قد استكبر، أو
2. أن يكون من العالين

ويطلب منه أن يختار أحد هذين السببين ليكون هو الدافع الحقيقي لعدم السجود لآدم، أليس كذلك؟

إنّ المتفحص للسياقات القرآنية عن معنى الاستكبار يجد أنه يتمثل في أن يميز طرف نفسه على طرف آخر دون وجه حق، فيظن أنه أعلى مرتبة أو منزلة وأرفع شأنا منه:

- ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [الأعراف: 75]

فالملأ قد رأوا في أنفسهم أنهم أعظم شأناً وأعلى مرتبة من الذين استضعفوا، فكانوا إذاً من المستكبرين، ولا شك أن تلك سمة مذمومة لا يحبها الله:

- ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [النحل: 23]

ولكن من هم العالين؟ وكيف يختلف العالون عن المستكبرين؟

يجب أن لا نخلط بين العالين (أو العالون) من جهة والأعلون من جهة أخرى، فالعالين سمة مذمومة بينما الأعلون سمة محمودة (وسنتعرض لذلك لاحقاً)"

لا شك أن فرعون قد استكبر هو وجنوده:

- ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [القصص: 39]

ولكنهم لم يتوقفوا عند ذلك الحد كما كان الأمر بالنسبة لقوم نوح مثلاً:

- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [هود: 25-27]

فهم بذلك قد استكبروا، فكان ذلك استكبار من يظن في نفسه العزة على الضعفاء، لذا جاء قول الحق عن قوم نوح في سياق قرآني آخر على النحو التالي:

- ﴿وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾﴾ [نوح: 7]

فلقد فعل قوم فرعون أكثر مما فعل قوم نوح، فما الذي فعله قوم فرعون على وجه التحديد؟

الجواب: لقد كانوا من العالين:

- ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [المؤمنون: 46]

فبالإضافة إلى الاستكبار فقد كانوا قوماً عالين بصريح اللفظ في الآية الكريمة السابقة.

وعند عقد مقارنة بين ما فعل قوم فرعون على وجه التحديد مقابل ما سأل الله إبليس عنه عن سبب عدم سجوده لآدم نجد التطابق العجيب، وهو الاستكبار و العَالِينَ:

- ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [ص: 75]

فكيف إذاً نفهم مفردة "العالين" في ضوء عقد هذه المقارنة بين السلوك المفترض لإبليس والسلوك الفعلي لقوم فرعون؟

إن أبسط ما يميّز قوم فرعون هو قول ربهم فرعون:

- ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٞ مِّن قَوۡمِهِۦ عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ أَن يَفۡتِنَهُمۡۚ وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٨٣﴾ [يونس: 83]
- ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٤﴾ [القصص: 4]
- ﴿مِن فِرۡعَوۡنَۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيٗا مِّنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١﴾ [الدخان: 31]

فكانت النتيجة أن ذهب فرعون إلى الحد الأقصى من الكفر ليقول:

- ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٤﴾ [النازعات: 24]

وكان طلبه من قومه غاية في الصراحة والوضوح:

- ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٣٨﴾ [القصص: 38]

وهدد من يعبد غيره بالعقاب الشديد (حتى وإن كان موسى نفسه):

- ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ ٢٩﴾ [الشعراء: 29]

وهذا يدل على أن قوم فرعون كانوا إذاً يعبدون ربهم فرعون، فأصبحوا بالإضافة على تكبرهم على بني إسرائيل من العالين الذين لا يعبدون الله ولكنهم يعبدون إلهاً من بينهم يظنون أنه خير من الله:

- ﴿وَنَادَىٰ فِرۡعَوۡنُ فِي قَوۡمِهِۦ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٥١ أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ٥٢﴾ [الزخرف: 51-52]

ولكن قوم نوح – مثلاً- لم يتخذوا من بينهم إلهاً بالرغم من كفرهم بإله نوح، فلم ينبري من بينهم ليقول لهم أنا الإله الذي يجب أن تعبدوه، ولم نجد أنهم قد أطاعوا إلهاً من بينهم، لذا لم نجد من بينهم من يستخف بهم كما فعل فرعون:

- ﴿فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ٥٤﴾ [الزخرف: 54]

لهذا كان قوم نوح من المستكبرين ولكنهم لم يكونوا من العالين، ولكن قوم فرعون كانوا من المستكبرين وكانوا أيضاً من العالين.

والآن لنعود إلى فهم الآية التي تتحدث عن إبليس وسبب رفضه السجود لآدم في ضوء هذا الطرح، ونعيد الآية هنا لنتفقدها من هذا المنظور:

- ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ۝٧٥﴾ [ص: 75]

لنقول بأن الله يطلب من إبليس الإفصاح عن سبب عدم سجوده لآدم وذلك باختيار أحد أمرين: إما أن يكون قد استكبر أو أن يكون من العالين، أليس كذلك؟

إما أن يكون السبب هو التكبر: أي استكبار إبليس على آدم، فقد كان يظن إبليس أنه خير من آدم، أو أن يكون من العالين: أي أنه يعبد إلهاً آخر غير الله رب العالمين

وبذلك يكون الاستفسار الإلهي من إبليس – كما نفهمه- على نحو: هل مشكلتك – يا إبليس- التي دفعتك لرفض السجود لآدم تتمثل في علاقتك بآدم (أي الاستكبار)، أم هي مشكلة متعلقة بالله نفسه (من العالين): وهنا يأتي الجواب الفوري الذي لا لبس فيه من إبليس على النحو التالي:

- ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ۝٧٦﴾ [ص: 76]

ليؤكد إبليس بما لا يدع مجالاً للشك بأن مشكلته لا تكمن في علاقته مع الذات الإلهية وإنما هي مشكلة تتمحور حول علاقته مع آدم، وبكلمات بسيطة نقول: لقد استكبر إبليس ولكنه لم يكن من العالين، وتأكد هذا الفهم في مواقع أخرى من كتاب الله عند الحديث عن رفض سجود إبليس لآدم:

- ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٣٤﴾ [البقرة: 34]
- ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٧٤﴾ [ص: 74]

فإبليس لم يترك أبداً الإيمان بأن الله هو ربه، والدليل على ذلك هو أنه حتى بعد رفضه السجود لآدم وطرده من المكان الذي كان يتواجد به آدم، جاء طلبه من الله على النحو التالي:

- ﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ۝٣٤ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٣٥ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ۝٣٦﴾ [الحجر:34-36]

النتيجة: لم يترك إبليس أبداً الإيمان بأن الله هو ربه، لذا لم يكن من العالين لأن مشكلته لم تكن تنبع من علاقته بربه، ولكنه - دون أدنى شك- كان من المتكبرين لأن مشكلته كانت تكمن في علاقته بآدم

الخلاصة: أكبر والأعلى

إن ما يهمّنا هنا هو القول أن مفردة "أكبر" هي مفردة خاصة بالزمن، فالإله غير محدد بالزمن، لا بداية له ولا نهاية له (ويمكن التمثيل على ذلك بتصور خط الأعداد، فأنا أظن أننا نستطيع أن نحدد بداية وجود الذات الإلهية زمنياً يوم أن نستطيع تحديد آخر رقم على خط الأعداد من الجهة السالبة، فقل لي ما هو آخر رقم على خط الأعداد من الجهة السالبة أقل لك متى كانت بداية الله، وبالمثل فإننا نستطيع أن نحدد متى ينتهي الوجود الإلهي زمنياً إن استطعنا تحديد آخر رقم على خط الأعداد من الجهة الموجبة)،

لذا فهو أكبر (وليس الأكبر)، أما العلو فهي مفردة خاصة بالمكان، لذا فإن هناك حد لعلو الإله، فهو الأعلى (وليس أعلى)، وإلا لأصبح الإله كينونة متماهية غير محددة (وسنحاول أن نقدم التطبيقات العملية كالكرم والرحمة والشدة، الخ، لمثل هذا الإدعاء في مقالة لاحقة بحول الله)

عودة على بدء

إنّ الخطأ في التصور المبني على افتراض أن "على" تفيد الفوقية ربما جاء – في رأينا- من الفهم الخاطئ لمثل السياقات القرآنية التالية:

- ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤﴾ [هود: 44]
- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقٗا ٣١﴾ [الكهف: 31]
- ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٦٥﴾ [الحج: 65]
- ﴿وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ ٢٢﴾ [المؤمنون: 22]
- ﴿فَإِذَا ٱسۡتَوَيۡتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلۡفُلۡكِ فَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٨﴾ [المؤمنون: 28]
- ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ٦٣﴾ [الفرقان: 63]
- ﴿هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ٥٦﴾ [يس: 56]
- ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبۡلُغُواْ عَلَيۡهَا حَاجَةٗ فِي صُدُورِكُمۡ وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ ٨٠﴾ [غافر: 80]
- ﴿وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ٢٦﴾ [نوح: 26]

فقد ظن الكثيرون أن في مثل هذه الحالات فإن حرف الجر على يقيد الارتفاع (أو الفوقية)، فالسفينة قد استوت على الجودي، والمؤمنون متكئون على الأرائك، وعباد الرحمن يمشون على الأرض، وهكذا. ولكننا سنثير تساؤلاً بسيطاً هنا وهو: هل فعلاً يكون هؤلاء فوق تلك الأشياء التي ذكرت؟ وإن كان كذلك فكيف يمكن أن نتصور أن الناس جالسين (أو متكئين) فوق الأريكة مثلاً؟

إن مما لا شك فيه أن هناك ملامسة بين الجالس والشيء "المجلوس عليه"، فسفينة نوح تلامس الجودي، والركاب على ظهر السفينة يلامسون سطح المركب بأقدامهم وأجسادهم، والجالسون على الأرائك يلامسون تلك الأرائك بأجسادهم، وهكذا؟ ولكن يبقى التساؤل قائماً: هل هذه الملامسة تعني الفوقية؟ فهل السفينة التي تجرى على الجودي هي فوق الجودي فعلاً؟

وإن كان كذلك فكيف يمكن أن نتصور تلك الفوقية في قوله تعالى:

- ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٧﴾ [البقرة: 7]

- ﴿إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةٗ مِّنۡهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ وَلِيَرۡبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمۡ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ ١١﴾ [الأنفال: 11]
- ﴿وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۚ وَإِذَا ذَكَرۡتَ رَبَّكَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِ وَحۡدَهُۥ وَلَّوۡاْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِمۡ نُفُورٗا ٤٦﴾ [الإسراء:46]
- ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ٢٤﴾ [محمد: 24]

فكيف يمكن أن نتصور الربط أو الختم على كينونة كالقلب؟ وفي أي جهة يمكن أن يتواجد ذلك القفل الذي يمكن أن يتواجد على بعض تلك القلوب؟

ولكي نجيب على مثل هذا التساؤل لا بد من إثارة تساؤلاً أكثر خطورة وهو: هل العلو (على) يفيد الفوقية بالملامسة السطحية فقط؟

إننا نستطيع تقديم عشرات الأمثلة من كتاب الله لتدل على أن العلو (في على) قد لا يقتضي الملامسة الفيزيائية السطحية، وإلاّ لتعذر فهم السياقات القرآنية التالية:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٤٣﴾ [البقرة: 143]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١٨٤﴾ [البقرة: 183-184]
- ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٨٦﴾ [البقرة: 286]
- ﴿۞ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ إِلَّا مَا دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمٗاۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٧٥﴾ [آل عمران: 75]
- ﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩٧﴾ [آل عمران: 97]
- ﴿فَإِذَا قَضَيۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمۡۚ فَإِذَا ٱطۡمَأۡنَنتُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا ١٠٣﴾ [النساء: 103]

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢﴾ [المائدة: 2]
- ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ٩٩﴾ [المائدة: 99]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ٦٥﴾ [الأنفال: 65]
- ﴿وَمِمَّنۡ حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مُنَٰفِقُونَۖ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعۡلَمُهُمۡۖ نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيۡنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٖ ١٠١﴾ [التوبة: 101]
- ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَن تَأۡكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ إِخۡوَٰنِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَعۡمَٰمِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخۡوَٰلِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمۡ أَوۡ مَا مَلَكۡتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوۡ صَدِيقِكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَأۡكُلُواْ جَمِيعًا أَوۡ أَشۡتَاتٗاۚ فَإِذَا دَخَلۡتُم بُيُوتٗا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ تَحِيَّةٗ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةٗ طَيِّبَةٗۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٦١﴾ [النور: 61]

إن السياقات القرآنية الكثيرة السابقة تشير جميعها إلى التصور التالي: ليس شرطاً أن يكون العلو(على) بالملامسة السطحية. فنحن شهداء على الناس (ليس بالملامسة الفيزيائية السطحية)، وكذلك الرسول شهيد علينا، والرسول كان على قبلة (بيت المقدس) ثم تحول عنها، والصيام مكتوب علينا، وربما نكون على سفر، وهكذا.

فما المعنى الحقيقي لحرف الجر "على"؟

لنقارن السياقات القرآنية التالية لنخرج من بعدها ببعض الاستنباطات حول معنى حرف الجر على:

- ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ٢﴾ [المؤمنون: 2]
- ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَاۚ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَهُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ٩٢﴾ [الأنعام: 92]
- ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ ٢٣﴾ [المعارج: 23]
- ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ٣٤﴾ [المعارج: 34]

إن التأمل بمثل هذه السياقات القرآنية يساعدنا على الخروج ببعض الاستنباطات نذكر منها على سبيل المثال:

⇐ إذا كان الإنسان داخلاً في الصلاة فعلياً فهو يخشع فيها، ولكنه حتى لو لم يكن في تلك اللحظة قائماً يصلي إلا أنه يبقى محافظاً على الصلاة، وهذا يعني أن المؤمن يكون محافظاً على الصلاة متى ما كان مراقباً لها، فهو يراقب أوقات الصلاة حتى يؤديها على وقتها،

⇐ ومن المعاني التي يمكن استنباطها أيضاً هو أن حرف الجر على يفيد ليس فقط المراقبة وإنما المراقبة الدائمة، فلا يمكن أن يعتبر المؤمن محافظا على الصلاة (أو دائم عليها) إن كان يؤديها على انقطاع، فالانتظام شرط لكي يكون الشخص محافظا على الصلاة، فالمؤمن يكون دائم المراقبة للصلاة حتى لا يفوته شيء منها.

⇐ ومن المعاني التي يمكن استنباطها هنا هو أن حرف الجر على يفيد الدقة، فالمؤمن المحافظ على الصلاة غالباً ما يودي الصلاة على وقتها وليس في وقتها، فوقت صلاة الظهر مثلاً يبدأ من رفع أذان الظهر حتى يرفع أذان العصر، ولكن ما يهمنا هنا هو أن المؤمن المحافظ على الصلاة لا ينتظر طويلاً حتى يقوم بتأدية صلاة الظهر مثلاً لأنه يحافظ على الصلاة فيؤديها على وقتها (وليس فقط في وقتها).

لذا فإن المراقبة (فلا غفلة) والديمومة (فلا تضييع) والدقة (فلا تأجيل) هي جميعا ما يشكل جزءاً رئيسياً من المعنى الحقيقي لحرف الجر على. وهذه المعاني جلية في جميع السياقات القرآنية التي ورد فيها استخدام حرف الجر على، ولنقدم بعض الأمثلة لتوضيح الصورة:

فربما يستحب بعض أهل الإسلام شيئاً من الكفر على شيء من الإيمان، فهل هذا يدعو إلى عدم ولايتهم؟

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣﴾ [التوبة: 23]

إن المدقق في النص القرآني يجد أن استحباب الكفر على كل الإيمان هو الشرط اللازم لعدم ولاية أقارب الدم، فحتى لا تتولى أباك أو أخاك فيجب أن يكون ممن يستحب الكفر على كل الأيمان، ولكن هل لو كان أبوك أو أخوك يستحب شيئاً من الكفر على شيء من الإيمان (كأن يكون ممن لا يستحبون تعدد الزوجات مثلاً) هل يدعوك ذلك إلى عدم ولايته؟

وهذا ينطبق على الكافرين الذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة:

- ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٠٧﴾ [النحل: 107]

فهم قد استحقوا لقب الكفر عن جدارة لأنهم فضلوا الحياة الدنيا على كل الآخرة، فنحن نعلم أن بعض المؤمنين ربما يكون في أنفسهم شيئاً من تفضيل الحياة الدنيا على الآخرة، ولكن هل هذا يجعلهم ضمن فئة الكافرين؟ كلا، فالكافر لا يكون كافراً إلا أن يقع في الكفر كله. لذا فإن الله عندما يقول أنه قد تاب عليهم في الآيات التالية، فذاك يشملهم جميعاً:

- ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١١٧﴾ [التوبة: 117]
- ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١١٨﴾ [التوبة: 118]

ونحن لا يمكن أن نتصور أن يحدث ذلك دون أن يكون الله مطلعاً إطلاعاً كاملاً ودقيقاً على حالهم.

وعندما جاء التحريم على بني إسرائيل جاء ليشملهم جميعاً:

- ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا مَا قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُۖ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ١١٨﴾ [النحل: 118]

وكذلك بالنسبة لتحريم الزنا، فقد حرم الله ذلك على كل المؤمنين:

- ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةٗ وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٣﴾ [النور: 3]

وهذا ما حصل مع ثمود عندما استحبوا العمى على الهدى (كله).

- ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ فَأَخَذَتۡهُمۡ صَٰعِقَةُ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٧﴾ [فصلت: 17]

وعندما جاء فضل الله على الناس، جاء ليشملهم جميعاً، فلا يوجد إنسان على وجه الله ليس لله فضل عليه:

- ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ ٧٣﴾ [النمل: 73]

وكما الشمولية، فإن الالتزام (الديمومة) صفة لا تنفك عن استخدامات حرف الجر على، والأمثلة عديدة من كتاب الله:

- ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٦﴾ [هود:6]

فالله قد ألزم نفسه برزق كل دابة، فهو إذا لا يغفل عن ذلك، فرزقها لا يأتي يوما وينقطع أيام أخر، فإلزام الله نفسه برزقها باستخدام حرف الجر على لا يعني الفوقية إطلاقاً، وإنما عدم الغفلة ممن عليه الرزق. ولا زال مثل هذا الاستخدام جار على السنة الناس، فعدما تقول لشخص ما أنت عليك تجهيز المكان، فإنك بعدها تحاسبه إن لم يكن عمله كاملاً، فإن هو قصر ولو بأقل للقليل لكانت حجتك أن نقول له (أنا قلت لك منذ البداية أن ذلك عليك)

والمراقبة الحثيثة لا تفارق معنى حرف الجر على، والسياقات القرآنية التالية التي تفيد هذا المعنى كثيرة:

- ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ٤٥﴾ [البقرة: 45]
- ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ٢٣٨﴾ [البقرة: 238]

لهذا فإن موسى كان – بلا شك - مراقباً للمدينة حتى تمكن من دخولها خفية:

- ﴿وَدَخَلَ ٱلۡمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفۡلَةٖ مِّنۡ أَهۡلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيۡنِ يَقۡتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنۡ عَدُوِّهِۦۖ فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ ١٥﴾ [القصص:15]

فلو علم أهل المدينة وقت دخوله لانتهى خبره إلى فرعون وملئه ولكانوا له بالمرصاد لحظة دخوله فيها.

وها هم قوم نوح يمرون عليه:

- ﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ٣٨﴾ [هود: 38]

فلا شك أن مرورهم ذاك كان مقصوداً، ليراقبوا ما يفعل الرجل، وإلاّ لجاء النص القرآني على نحو مروا به وليس مروا عليه كما في الآية التالية:

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ٢٩ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ٣٠﴾ [المطففين: 29-30]

فما الفرق بين أن يمر عليك نفر من الناس وأن يمر بك نفر من الناس؟

لا شك أن المرور على الشخص يكون عملاً مقصوداً ينتج عنه رؤية طرف للطرف الآخر ومراقبته، ولا يمكن أن يكون عنصر المصادفة (أو الغفلة) جزء منه، ولكن المرور بـ الشخص – في المقابل- ربما يحدث صدفة ودونما رؤية طرف للطرف الآخر، لذلك لا يستطيع المار أن يغمز لو كان الطرف الآخر واع متيقظ لحركات وفعلات الطرف الآخر:

- ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ٣٠﴾ [المطففين: 30]

فنوح لا شك كان يعلم أن الناس الذين يمرون عليه كانوا يسخرون منه، ولكن قد لا يكون الذين آمنوا متيقظين لفعل الذين أجرموا، والمراقب للنص يجد أن فعل الطرف الذي كان يمر على نوح جاء على شكل سخرية، بينما كان فعل الطرف الذي كان يمر بـ الذين أمنوا على شكل غمز (يتغامزون).

وتتجلى هذه المعاني جميعها في مثل قوله تعالى:

- ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٧﴾ [البقرة: 47]

- ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢٢﴾ [البقرة: 122]
- ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣﴾ [آل عمران: 33]
- ﴿وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٢﴾ [آل عمران: 42]
- ﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطٗاۚ وَكُلّٗا فَضَّلۡنَا عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨٦﴾ [الأنعام: 86]
- ﴿قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٤٠﴾ [الأعراف: 140]
- ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤﴾ [الأعراف:144]
- ﴿وَلَقَدِ ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ عِلۡمٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٢﴾ [الدخان: 32]

لذا فإن الله عندما اختار، وفضل واصطفى، فقد كان مطلعاً على الدوام مراقباً مراقبة شاملة و دقيقة (لم يفته فيها شيء)، فكان ذاك هو الحق بعينه، وليس أدل على ذلك من قول الحق بخصوص موسى:

- ﴿أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥۚ وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ٣٩﴾ [طه: 39]

فما معنى أن يصنع موسى "على عين ربه"؟

رؤية جديدة

وبهذا الفهم يمكن أن نفسر بعض السياقات القرآنية من زاوية جديدة، فالله يقول مثلاً:

- ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ١٧٩﴾ [آل عمران: 179]

فالله ينفي أن يطلعنا (الناس) على الغيب، أليس كذلك؟ ولكن ألم يكن هناك من عباد الله من اطلع على الغيب؟ فماذا نقول في قصة صاحب موسى؟ وماذا نقول في قصة عيسى؟ ألم يكن ينبئهم بما يأكلون وما يدخرون؟

- ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٤٩﴾ [آل عمران: 49]

وماذا عن نبوءات يوسف لمن حوله، وخصوصاً في تفسيره لرؤيا الملك وما سيحل بأرض مصر على مدار أربعة عشرة سنة وعام زيادة؟

- ﴿قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ۝٤٧ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ ۝٤٨ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ ۝٤٩﴾ [يوسف:49-47]

وكيف بصاحب موسى يخرق السفينة، ويقتل الغلام، ويبني الجدار لو لم يكن له نصيب من ذاك العلم؟

فكيف يمكن إذاً التوفيق بين قول الحق "وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ" والأحداث العديدة في كتاب الله التي تدل على صحة نبوات بعض الأنبياء والصالحين؟

الجواب: لنمعن التفكير في معنى الإحاطة (الشمولية) الذي يلازم حرف الجر على، فالمدقق في النص جيداً يجد أن الله قد قال "وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ"، وهذا يعني – ضمن إطار تحليلنا الحالي لحرف الجر على- الغيب (كل الغيب) وذلك بدلالة وجود حرف الجر على. وهذا ينسجم بشكل مطلق مع قوله تعالى:

- ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ۝٢٥٥﴾ [البقرة: 255]

فالله قد قضى أن يحيط بعض الناس بشيء من علمه، ولكن يستحيل أن يحيط الناس بكل علم الله، فالله لن يطلعنا على الغيب، ولكنه يطلعنا على شيء منه (من علمه وليس من غيبه – وسنحاول التفصيل في هذا الموضوع لاحقاً)، وهو ما ينسجم بلا تأويل مع قوله تعالى:

- ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ۝٥٩﴾ [الأنعام: 59]

واستنباطاتنا السابقة حول معنى حرف الجر على تفيدنا كذلك في فهم السياق القرآني التالي:

- ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا ۝٣٤﴾ [النساء: 34]

فالرجال قوامون على النساء (كل النساء)، فحتى لو بلغت المرأة من العلم والمنصب ما بلغت تبقى القوامة بيد زوجها (حتى وإن لم يبلغ ما بلغت هي من العلم والمنصب).

عنصر المكان في معنى حرف الجر على

إن معظم الغلط الذي حصل حول تأويلات حرف الجر على جاءت من الفهم الخاطئ لعنصر المكان في حرف الجر على، فقد ظن الكثيرون - كما أسلفنا سابقاً - أن عنصر المكان الموجود في معنى حرف الجر "على" يفيد الفوقية، ونحن نظن أن الكارثة كل الكارثة كانت في مثل هذا التصور، ولنبدأ بالسياق القرآني التالي لتفنيد مثل ذاك الفهم المغلوط:

- ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [المائدة: 3]
- ﴿إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾﴾ [طه: 10]

وهنا نبادر القارىء الكريم بمجموعة من الأسئلة بعد تدبر مثل هذه السياقات القرآنية جيداً:

⇐ هل كان من يذبح على النصب يصعد فوقها لينحر قربانه؟
⇐ هل وقف موسى فوق النار عندما ذهب آملاً أن يجد عليها هدى؟

إن هذا أبعد ما يمكن أن يكون عن الخيال، فالناس كانوا ينحروا (ذبحاً) القرابين للنصب دون أن يصعدوا فوقها، فهي آلهتهم، ولا أخال أنهم كانوا يفعلون ذلك، ولو فعلوا ذلك (ولو مرة واحدة) لأدركوا سخافة معتقدهم على الفور، فأي إله هو الذي يمكن أن تصعد لتقف على رأسه؟!

إن جل ما كانوا يفعلوه هو أن ينحروا قرابينهم بالقرب من الإلهة وربما عند أطرافها السفلية.

وأظن أن موسى لم يقف فوق النار مباشرة، ولم يجد الهدى ملامساً لسطح النار، فهو قد وقف في مقربة من النار وجاءه الهدى عند تلك النار.

لذا فعند استعراض العنصر المكاني في معنى حرف الجر "على" نجد أنها تفيد المجاورة كما في حالة موسى والنار، وتفيد الدونيّة كما في حالة ذبح القرابين على النصب، واستخدامات حرف الجر على تفيد الارتفاع في مواطن كما تفيد الانخفاض في مواطن أخرى، وليس أدل على ذلك من مشهد العرض الذي يتكرر بشكل كبير في كتاب الله، فقد حدث العرض الأول يوم أن خلق الله آدم وطلب من الملائكة السجود لآدم:

- ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾﴾ [البقرة: 31]

فكيف يمكن أن نتصور عملية العرض تلك؟ فهل كان مشهد الفوقية متوافر فيها؟ لا شك أن هناك طرفان في كل عملية عرض: المعروض والمعروض عليه (للتفصيل في هذا الموضوع انظر مقالتنا تحت

عنوان جدلية عذاب القبر)، ولكننا هنا نلتزم بسؤال واحد وهو: كيف يكون المعروض والمعروض عليه مكانياً بالنسبة لبعضهم البعض؟ فما هو مكان المعروض بالنسبة للمعروض عليه؟

- ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأحقاف: 20]

فكيف يتم عرض الذين كفروا على النار؟ وكيف سيكون وجود الذين كفروا (المعروض) مكانياً بالنسبة للنار (المعروض عليها)؟

لا شك أنه حتى تتم عملية العرض يجب أن يكون هناك مسافة بين المعروض والمعروض عليه بغض النظر عن مكان كل منهم بالنسبة للآخر، فيستحيل أن يتم العرض إذا كان هناك تلاصق بين المعروض والمعروض عليه، فأنت عندما تقوم بعرض فيلم تلفزيوني أو مسرحي على المشاهدين تكون هناك مسافة بين المعروض (الفلم) والمعروض عليهم (الجمهور)، وهكذا. وبهذا الفهم نستطيع أن نفهم السياقات القرآنية التالي:

- ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴿٣١﴾﴾ [ص: 31]
- ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأحقاف: 20]
- ﴿﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ ﴿٣٤﴾﴾ [الأحقاف: 34]

وهذا الفصل بين المعروض والمعروض عليه ضرورة لابد منها خاصة إذا ما تصورنا المشهد التالي:

- ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾﴾ [الكهف: 48]

فمن غير المنطقي أن يكون هناك تلاصق بين المعروض (الناس) والمعروض عليه (رب الناس) في يوم العرض الأكبر. والاستحالة تكمن في وجود المعروض (الناس) فوق المعروض عليه (رب الناس).

إنّ أهم ما نصبوا إليه من قراءتنا لمثل هذه السياقات التالية هو ما يخص الجانب المكاني في حرف الجر على، فهذه السياقات القرآنية تدل بما لا يدع مجال للشك أن حرف الجر على لا يفيد الفوقية المكانية إطلاقاً، وإلاّ لتعذر علينا فهم كيف سيتم عرض الناس على ربهم، هل سيكون الناس إذاً "فوق" ربهم (وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ) ؟ إنّ هذا أبعد ما يكون عن الحقيقية، ولكن لمّا كان الله بكل شيء محيط، فإننا نفهم أن العرض على ربنا سيكون على نحو أن الله محيط بالناس من كل اتجاه، فعلى هنا تفيد الإحاطة المكانية، ونستطيع أن نتصور مثل هذا المشهد بالتمثيل الذي تقدمه الآية الكريمة التالي:

- ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الأنعام: 143]

فنحن نظن (ولله المثل الأعلى) أنّ الرحم يشتمل على ما فيه (اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ)، لذا فهو يحيط بكل ما فيه من كل اتجاه.

فالله سيكون مطلعاً على الناس من كل اتجاه (لا يخفى عليه شيء)، لذا فإن المشاهدة والمراقبة الكلية التي تبين السيطرة الإلهية على الموقف من كل اتجاه متوافرة في حرف الجر على.

ولتبسيط الفكرة أكثر، فنحن لا زلنا نقول - مثلاً - أن القاهرة تقع على النيل، فهل يعني أن المدينة متواجدة فوق النيل تواجداً فيزيائياً؟ كلا وألف كلا، إنها فقط الإطلالة (الرؤيا) المسيطرة، فالمدينة تطل بطريقة مسيطرة على النهر، ولكن بالمقابل لا نستطيع أن نقول أن المدينة المنورة - مثلاً - تقع على البحر الأحمر بالرغم أن المسافة الفاصلة بينهما لا تتجاوز عشرات الكيلو مترات، ولكننا نستطيع بلا تردد أن نقول أن جدة تقع على البحر الأحمر، وذلك ليس للملاصقة المكانية، وإنما للإطلالة التي تتمتع بها المدينة على البحر. فالأردن - مثلا - لا يقع على البحر الأحمر بالرغم من أن خليجه (العقبة) جزء من البحر الأحمر، وذلك لسبب بسيط وهو –في رأينا- أن إطلالة الأردن على البحر الأحمر تأتي من زاوية لا تمكنها من الرؤيا المسيطرة على البحر، ولكننا نقول أن مصر تقع على البحر الأحمر أو البحر المتوسط، وذلك لأن حرف الجر "على" يفيد الرؤيا المسيطرة وليس الرؤيا الجزئية أو الجانبية.

لذا فعندما نقول أن المتحاورين جالسون على الطاولة فإننا نستطيع أن نستنتج عدة أمور:

⇐ ذلك لا يعني الفوقية، فهم بكل تأكيد ليسوا فوق الطاولة وإنما حولها
⇐ وذلك لا يعني الملامسة المباشرة، فقد يكون هناك مسافة بين الطاولة والمتحاورين الجالسين حولها
⇐ وذاك يعني الإحاطة، فهم ملتفون حول الطاولة
⇐ وذلك يعني الرؤيا الكاملة، فالمتفرجون في الصف الثاني أو الثالث حول المتحاورين لا يكونون من الجالسين على الطاولة، لأن من يجلس على الطاولة يجب أن يكون في موضع يمكّنه من الرؤيا المباشرة لكل ما على الطاولة، لذا فإن حجبت الرؤيا بعض الشيء (كمن يجلس في الصف الثاني أو الثالث من المتفرجين لا يعتبرون جالسين على الطاولة).

والآن لنعود بهذا الفهم إلى قضية استواء الرحمن على العرش كما تصورها الآية الكريمة التالية:

- ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: 5]

لنقول:

⇐ العرش مفصول عن الذات الإلهية، فلا يوجد ملاصقة بين العرش ورب العرش (القرب)، فالعرش موجود ضمن نطاق السموات والأرض، والرحمن موجود خارج نطاق السموات والأرض
⇐ الرحمن ليس فوق العرش من اتجاه واحد بل هو محيط إحاطة كاملة بالعرش من كل اتجاه، فالسموات مطويات بيمينه والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة.
⇐ الرحمن يسيطر على العرش بالرؤيا المباشرة الشاملة والدقيقة، فلا يفوته شيء.

فالمراقبة المسيطرة الدقيقة الشاملة الدائمة والمقصودة هي ما يحكم استخدام حرف الجر على، فالله قد حرم الأرض على القوم الفاسقين من بني إسرائيل (الذين رفضوا دخول الأرض المقدسة) أربعين سنة:

- ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [المائدة: 26]

وهو قد جعل الرجس على الذين لا يؤمنون:

- ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [الأنعام: 125]

فهم قد وجدوا أبائهم على الفواحش، وذلك لديمومة فعلهم وفعلهم ذلك عن قصد:

- ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأعراف: 28]

وكثير من الناس من يكذب، ولكن الذي يفتري على الله الكذب، فهو يفعل ذلك عن علم وعن قصد:

- ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الأعراف:37]

وللحديث بقية

24 تشرين ثاني 2011